حياة الوزير الكجراتي الهندي آصف خان بمكة المكرمة

٩٤٢هـ-٩٥٥هـ/١٥٣٥م-١٥٤٨م

إعداد

د. لمياء أحمد شافعي

أستاذ التاريخ الإسلامي المشارك

جامعة أم القرى بمكة المكرّمة

حياة الوزير الكجراتي الهندي آصف خان بمكة المكرمة

٩٤٢هـ-٩٥٥هـ/١٥٣٥م-١٥٤٨م

ملخص البحث :

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، المبعوث رحمة للعالمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

يتضمن هذا البحث دراسة لشخصية إسلامية ذات مكانة سياسية وعلمية رفيعة ، قدم إلى مكة المكرمة مبعوثاً من دولة إسلامية وهي الدولة الكجراتية الهندية في مهمة رسمية تتمثل في نقل عائلة وثروات الملك الهندي بهادر شاه بعد أن هاجمه المغول والبرتغاليون ، فخاف من الهزيمة وخشى على أسرته فأرسلها مع وزيره آصف خان إلى البقعة المباركة مكة المكرمة بقصد حمايتهم بها . فمكث الوزير الهندي بمكة قرابة الثلاثة عشر عاماً من سنة ٩٤٢هـ/١٥٣٥م إلى سنة ٩٥٥هـ/١٥٤٨م وكانت له فيها علاقات ومبرّات وأعمال خير خلّدت اسمه ، بالإضافة إلى تشجيعه للحركة العلمية فيها بما قدمه للعلماء والفقهاء . ولقد أرخ له بمكة مؤرخها المشهور المعاصر له جار الله بن فهد في كتابه " نيل المنى ، بذيل بلوغ القرى ، لتكملة إتحاف الورى " بما يسجّل تقبل المجتمع المكي للقادمين إليه ، وهي السمة التي تمتاز بها أم القرى حيث تجتمع بها في كل سنة عناصر المجتمعات الإسلامية على اختلاف أجناسها وحضاراتها وخصائصها فيكون فيها التفاعل والتكامل وتنتج عن ذلك مظاهر الحضارة الإسلامية بكل مقوماتها .

اشتملت الدراسة على التعريف بشخصية الوزير آصف خان في ترجمة ضمّتْ اسمه ومولده وقدومه إلى مكة وسكنه فيها إلى وفاته ، كما تناولت بيان مكانته الثقافية وعلاقاته السياسية والاجتماعية سواء بأمراء مكة وحكامها أو بسلطة الدولة العثمانية القائمة أو بأهلها من العلماء والعامة . ثم ما كان من مبرّاته الخاصة والعامة ، وعطاياه لأهلها ، والرحلات التي قام بها في تلك الفترة من مُقامه . ونتاج هذه العلاقات الطيبة من مؤلفات الحجازيين في مدحه ورثاء بعضهم له عندما وصلهم خبر وفاته . بما يثبت تلك العلاقات التي اتسمت بالمحبة والتقدير والاحترام . وتناولت خاتمة البحث نتائج هذه الدراسة لتلك الشخصية العلمية والسياسية القادمة إلى مكة المكرمة وأهميتها . فهي دراسة لموضوع جديد لم تسبق الكتابة فيه .

والله ولي التوفيق وهو من وراء القصد . والحمد لله رب العالمين .

Summary

The Life of Asef Khan The Indian Kjraty Minister

(942-955H …1535 -1548AD)

Dr. Lamiaa Ahmed Abdulah Shafeay
Associate professor – Om ElQora University.

Praise be to God, prayer and peace be upon the Messenger of God's Envoy to the mercy of the worlds and his family and companions. This research includes a study about an Islamic character with a high political and scientific grade. He came to Makah as an envoy from the Indian Kjraty an Islamic country in an official mission which was transferring the family and treasures of king Bahadur Shah after the Mongolians and Portuguese had attached him, so he was afraid that they beat him, and was worried about his family so he sent his minister Asef Khan to this holy spot Makah to protect them there. The Indian minister then last at Makah about thirteen years from 942-955H (1535-1548AD) where he made good relations, good work and Mbrat that made his name last forever. Besides he encouraged the scientific movement through what he offered to the scientists and the Jurisconsults. The historian Gar Allah Ebn Fahd who was alive at his time had wrote down his biography in his book "Nail Almona Bethail Bologh Alqora letakmelat athaf alwara" which records and proofs the acceptance of the Makki community to the foreigners. This is a feature that signifies Om AlQora where the different Islamic communities meet there every year despite of their different origins, cultures, or races, these elements of the different communities are mixed and interacted together to produce the Islamic culture with all its elements.

This study contains an introduction about the minister Asef Khan in an interpretation that included his name, birth, his arrival to Makah, his residence in it, his family and his death. More over it talked about his cultural situation, political and social relations with all elements of the society, princes and governors of Makah, or the authority of The Ottoman Empire, as well as its people scientists and laymen. More over it mentioned about his private and public mbrat , his gifts to its people, and the trips that he made during this period. These good relations result in good writings about him in the Hijaazis books praising him or lamenting him when they knew about his death. These writings proof the good relations between him and the people. At the end there was a chapter about the conclusions of the study of this scientific, political character that arrived to Makah, and its importance. It is a new study that no one had written about before.

And Allah is the Source of strength of the intent and Praise to Allah, Lord of the Worlds

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة :

ارتبط العالم الإسلامي شرقه وغربه بقلبه النابض مدينته المقدسة مكة المكرمة ، وحرصت جميع الدول كبيرها وصغيرها على مر الأزمنة التاريخية أن تقيم علاقات تربطها بمكة ، ومنها تلك الدويلة التي قامت في غرب الهند على شاطئ البحر شمال بمباي بعد أن استقل حاكمها مظفر شاه الأول بمدينة كجرات شمال بومباي والتي كانت تابعة لملوك دلهي . وعاشت هذه الدولة لأكثر من قرن ونصف إذ قامت في سنة ٨١٠هـ/١٤٠٧م وسقطت سنة ٩٦٥هـ/١٥٧٢م على يد دولة المغول الإسلامية التي استولت عليها [(١)]. وقيل إن سقوطها كان في عهد مظفر شاه الثالث سنة ٩٧٨هـ/ ١٥٧٢م [(٢)] ، وفي رواية سنة ٩٩٢هـ / ١٥٨٤م [(٣)] .

وبدأت العلاقات بين الدولة الكجراتية الهندية وعاصمة البلاد الإسلامية مكة المكرمة بقدسيتها منذ بداية قيام هذه الدولة الإسلامية بالهند ، ودأب ملوكها على إرسال المبرات والعطايا التي توزع على أهالي مكة المكرمة والواردين عليها وتصرف على بناء المدارس فيها .

فلقد كان مؤسسها مظفر شاه الذي جمع ثلاث صفات هامة وهي : الصلاح الديني ، والالتزام بالثقافة الإسلامية وتقدير العلماء ، والعمل على جهاد الهندوس ، فحرص على إقامة علاقات قوية مع مكة وأهلها بإرسال المبرات إليها .

وخلفه ابنه أحمد الذي وطّد علاقته بمكة المكرمة فأنشأ المدرسة الكنبائية فيها سنة ٨٦٦هـ/١٤٦٢م نسبة إلى ولاية من ولايات كجرات الهندية تسمى كنباية[(٤)].

وظهر مظفر شاه الثاني الذي تولى سنة ٩١٦هـ/١٥١٠م فسار على منهج سلفه في الجهاد وتشجيع العلماء والعناية بمكة وأهلها ، فكانت له مبرات كثيرة يستفيد منها المجتمع المكي في مختلف المجالات ، بالإضافة إلى اهتمامه بالحركة العلمية حيث أنشأ مدرسته الشهيرة التي تحمل اسم المدرسة المظفرية وأطلق عليها أهل مكة المدرسة المظفر شاهية ، وأوقف عليها العديد من المباني والبيوت (٥) ،

كما أهدى إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة مصحفين فاخرين كتبهما بخطه (٦) .

وبعد وفاته أمسك بزمام السلطة ابنه بهادر شاه سنة ٩٣٢هـ/١٥٢٦م وخلال السنوات العشر الأولى من حكمه واجَهَ مشاكل داخلية بقيام ثورات عنيفة ضده ، وخارجية كتأسيس البرتغاليين للعديد من القواعد العسكرية على شواطئ الهند . تضاف إليها أخطار دولة المغول الإسلامية بدلهي التي تهدد وجود دولته بإغارتها على مدينة كجرات سنة ٩٤٢هـ/١٥٣٦م . وبما أن هزيمته كانت متوقعة فكّر بهادر شاه في اللجوء إلى مكة المكرمة ليجد فيها أمن حريمه وحاشيته ونفائس خزائنه ، فأرسلها جميعها مع وزيره المثقف السياسي المحنك آصف خان واسمه عبد العزيز حميد الملك (٧) الذي قدم إلى مكة فكانت له فيها مآثر علمية وعلاقات اجتماعية ، أكرم جميع طبقاتها بما جاء به من الخير الوافر وكانت له مبرات وأعمال خير خلدت اسمه فيها بالإضافة إلى تشجيعه للحركة العلمية بما يقدمه بسخاء للعلماء والفقهاء ورجال علوم الدين .

عاش الوزير آصف خان في مكة المكرمة قرابة الثلاثة عشر عاماً ، فلقد دخلها في العاشر من جمادى الأولى سنة ٩٤٢هـ/ السابع من نوفمبر سنة ١٥٣٥م(٨) وعاد إلى بلاده في عام ٩٥٥هـ/١٥٤٨م (٩) . ورغم ذلك لم تذكره مصادر التاريخ المكي إلا قليلاً ، ولكنه كان معاصراً لمؤرخ مكة المشهور جار الله بن فهد (١٠)

الذي وضع كتابه نيل المنى ، بذيل بلوغ القرى ، لتكملة إتحاف الورى ، وجمع فيه أخبار البلد الأمين على منهج الحوليات من الكتابات التاريخية. بحيث ضمّ تفاصيل حياة المجتمع المكي وجعله تكملة لكتاب والده وجده فقدموا لنا دراسات سياسية واجتماعية لم نحصل عليها من مؤلفات غيرهم . وبما أن الوزير آصف خان أقام بمكة المكرمة في زمن جار الله فنجده سجّلَ كل – أو قُلْ جُلّ – أخباره وتصرفاته وأعماله الخيرية واجتماعاته العلمية ومواقفه السياسية وما إلى ذلك. فكان كتاب نيل المنى هو المصدر الأساسي الذي أبلغ لنا أغلب ما وصلنا من عناصر حياته وأحواله وتصرفاته بمكة المكرمة .

أما ما ورد في بعض المصادر الأخرى المعاصرة له أو التي أُلّفتْ بعده فلم تكن إلا مصادر ثانوية أو هي مصادر محدودة الفائدة تكمل لنا بعضاً من أخباره وتضيف لنا فوائد قليلة عنه[١١].

فحاولتُ من خلال كل ما أطلعت عليه من مصادر ترجمته أن أضع هذه الدراسة التي أحاول منها التعريف بالرجل وبتفاعله مع المجتمع المكي وتقبله له وترحيبه به . ذلك المجتمع المنفتح الذي كان وبقي وسيبقى مجتمعاً منفتحاً قابلاً ومحتضناً لكل واردٍ عليه ليكون التأثير والتأثر قائماً بينه وبين القادم . تلك هي خاصية مكة المكرمة على مر العصور ، وكيف لا تكون كذلك وهي أم القرى البلد الأمين الذي تجتمع به في كل سنة عناصر المجتمعات الإسلامية على اختلاف أجناسها وحضاراتها وخصائصها ، فيمتزج فيها التفاعل والتكامل . وتلك هي العناصر الأساسية لحضارة الإنسان .

ترجمته : **اسمه** ، **مولده** ، **وصوله إلى مكة** ، **سكنه فيها** ، **عائلته** ، **وفاته** :

اسمه : عبد العزيز بن حميد الملك محمد بن ركن الدين ، الملقب بآصف خان (١٢) .

مولده : ولد في ليلة الخميس ١٢ ربيع الأول سنة ٩٠٧هـ أو ٩٠٩هـ على اختلاف في ذلك الموافق ٢٦ سبتمبر سنة ١٥٠١م أو ١٥٠٣م (١٣) .

ولم نجد في المصادر أخباراً توضح لنا حياته قبل قدومه إلى مكة إلا أنه كان وزيراً للسلطان بهادر شاه سلطان الدولة الكجراتية في الهند . ومما لا شك فيه أن شخصية آصف خان قد بلغت منزلة وقدراً عالياً لدى السلطان الذي ائتمنه على عائلته وأمواله فنقلهما معه من الهند إلى مكة المكرمة مما يوضح مكانة الوزير لدى السلطان .

وصوله إلى مكة :

وصل الوزير الهندي آصف خان إلى مكة المكرمة في سنة ٩٤٢هـ/ ١٥٣٥م ولقد حدّد لنا جار الله بن فهد ذلك القدوم فأرّخه بالعاشر من جمادى الأولى سنة ٩٤٢هـ/ ٧ نوفمبر ١٥٣٥م (١٤) ، وحدد الجزيري دخوله إلى مكة " في الخامس عشر من ذلك الشهر " (١٥) .

أما سبب قدوم آصف خان إلى مكة فهو حدوث حرب في بلاد الهند بين السلطان بهادر شاه سلطان كجرات وبين السلطان محمد همايون صاحب دلهي . ولما كانت الحالة تنذر بالخطر الداهم على السلطان بهادر شاه خشي على حريمه ونفائس خزائنه فقرر أن يرسل وزيره آصف خان إلى مكة ، ومعه أهله ونساؤه وخزائنه لحفظها حتى تنجلي له نتائج حربه مع عدوه (١٦) .

وصل آصف خان إلى جدة على ستة مراكب قدمت من بلاد الهند ، وهو

تاريخ يصادف شهر النيروز الشمسي وما تعودت هذه المراكب القدوم فيه لما يكون عليه البحر من تحرك وأخطار " لقد أخذ السلطان بهادر شاه غالب تحفه وجواهره ونقوده وشحنها في هذه المراكب " (١٧) . ثم أرفق بها مراكب أخرى جعل فيها زوجته وأخاه وجماعة من أهله ، وكان عددهم نحو ألفي نفس من أكابرهم ، وعيّن عليهم وزيره آصف خان . ويعرض علينا جار الله بن فهد أخبار ما تحتويه عليه هذه السفن فيقول : " وأُشيع أن فيها ٣٥٠ صندوقاً من التحف والنقد من الذهب المضروب وغيره ، وفُتح بعضها فوُجد فيه سبعة آلاف دينار ، وفي بعضها عشرة آلاف .. ومن جملته حياصة مكللة بالجواهر الثمينة عُينت للسلطان سليمان ، وسيف مثمن لنائب الديار المصرية وغير ذلك للوزراء وأركان الدولة ولصاحب مكة وأتباعه .. مع مبرة لأهل المساجد الثلاثة " (١٨) أي لأهل الحرمين والمسجد الأقصى مما يشير إلى العلاقات الطيبة بين السلطان الهندي والسلطان العثماني ونائبه في مصر .

ومن خلاصة نصوص جار الله بن فهد المتعلقة بآصف خان يمكن أن نتعرف على أهم الشخصيات الذين كانوا يرافقونه في رحلته ودخلوا مكة وأقاموا بها . منهم : زوجة السلطان بهادر شاه وأخوه عماد الملك وأولاد السلطان وداية عياله ، وجماعة من عبيده ، وفرقة من العسكر ، ومجموعة من النساء ، وعدد من أهل السلطان وخواصه من الفضلاء المعتبرين ، ووصل عدد جميعهم إلى قرابة ألفي نفس كما ذكرنا سابقاً (١٩) .

ثم انضم إلى كنف الوزير آصف خان بمكة من الهند في شهر رمضان من نفس العام وزيران آخران أحدهما أخاه حميد الملك والثاني يُدعى شمس خان ومعهما الخواجا خليل الكيلاني أمين المبرة البهادرية (٢٠) وبصحبتهم عمة السلطان بهادر شاه والكثير من الأموال والتحف والمبرات (٢١) .

والظاهر أن الوزير قد احتاج معه بمكة لكاتبه فذكر لنا جار الله وجوده معه في خبر زواجه بمكة من ابنة الخواجا جلال الدين ابن الخطيب وبأنه كان معه كاتبه ميا عمر الهندي (٢٢) .

نستخلص من كل تلك الأخبار استقرار الوزير آصف خان بأهل وخواص السلطان بهادر شاه بمكة المكرمة وحياته فيها . ويوالي مؤرخ مكة جار الله بن فهد إيراد أخبار الوزير آصف خان وتحركاته ونشاطاته العلمية والسياسية والاجتماعية في المجتمع المكي إلى سنة ٩٤٦هـ/١٥٣٩م ، حيث يخبر عن تجهيزه لزوجة السلطان بهادر شاه ابن مظفر شاه مع الوفود الهندية المسافرة إلى بلاد كجرات بعد أن أرسل له ملك الهند محمود شاه في شهر المحرم من مطلع العام ٩٤٦هـ/ مايو ١٥٣٩م يطلب منه إعادة عيال عمه السلطان بهادر شاه من مكة إلى بلادهم لاستقرار أحوال البلاد لهم بعد انتصارهم على الفرنجة البرتغاليون ، فاشترى آصف خان بعض المراكب بجدة وجهزها لإرسالهم ومعهم الكثير من المجوهرات (٢٣) .

وفي شهر صفر كان إتمام شراء المراكب وتجهيزها ثم سافرت في الثاني من شهر ربيع الأول . وعلق جار الله على ذلك بقوله : " واستراح الوزير من خدمة عيال سلطانه ، وعلة عسكره وأعوانه " (٢٤) .

وآخر الأخبار التي أوردها جار الله عن الوزير آصف خان أنه في شهر جماد الأول من نفس العام أقام آصف خان وليمتيْن لأهل مكة في حوش دار العجلة جوار المدرسة الباسطية (٢٥) وانفق فيهما المبرات الكثيرة (٢٦) . وانقطعت بعد ذلك الأخبار التي أوردها جار الله لنهاية مؤلفه نيل المنى بنهاية أخبار شهر رجب من عام ٩٤٦هـ/ نوفمبر ١٥٣٩م فلم نظفر بأخبار آصف خان بمكة ولا بتاريخ خروجه منها وعودته لبلاده إلى أن جاء العيدروسي بعد أكثر من نصف قرن ليعلمنا بأن آصف خان مكث بمكة أكثر من عشر سنين ويحدد عودته إلى بلاد الهند في

سنة ٩٥٥هـ/١٥٤٨م (٢٧) . فلقد عاد آصف خان إلى بلاده وتولى الوزارة للسلطان محمود الذي خَلَفَ عمه السلطان بهادر شاه وبقي في خدمته إلى سنة ٩٦١هـ/ ١٥٥٤م حيث أجمعت المصادر على خبر مقتله في مؤامرة مع سلطانه في ذلك التاريخ (٢٨) .

سكن آصف خان بمكة :

بعد خمسة أيام من وروود الهنود إلى مكة نزل غالبهم بالمدرسة التي بناها سلطانهم السابق مظفر شاه والتي تقع بباب الصفا (٢٩) . ثم انتقلوا للسكن في قاعة قاضي الشافعية أبي السعود بن ظهيرة ، إلاّ أنها ضاقت عليهم لكثرتهم فعرضوا أغلى الأسعار لاستئجار البيوت المجاورة . ولما رأى القاضي الشافعي كثرة مال آصف خان عرض عليه بيته وأمتعته من الفرش ، وأنه لا يُخرج منها إلاّ كتبه وثياب بدنه. فقبل آصف خان السكن في بيت القاضي وردّ عليه جميع ما فيه وأسكن في البيت عيال سلطان الهند . واستأجر المنازل التي حوله ليسكن باقي المجموعة معه. وقيل إن الأسعار للمنازل وصلت مائة ومائتين وثلاثمائة فكان ذلك رزقاً لأهلها . وإن الوزير آصف خان سكن ببيت قبالة مسكن عيال السلطان (٣٠) .

وفي شهر شوال من نفس العام ٩٤٢هـ/ إبريل ١٥٣٦م انتقل آصف خان إلى بيت السيد علاء الدين ملك التجار بالقرب من باب العجلة (٣١) " واغتبط به لسعته وتحصيل البيوت الموافقة له ولجماعته كبيوت الشيخ حاتم المغربي وحوش الشيخ عمر الشيبي لخيله ، وحوش دار العجلة لمطبخه ، وكان قبل ذلك محصوراً في سكنه مع عيال سلطانه .. " (٣٢) .

عائلة آصف خان بمكة :

يبدو أنه عندما قدم آصف خان إلى مكة المكرمة جاء بعائلته معه ومنها

ابنان له احتفل بختانهما في منزله يوم الجمعة ٧ شعبان سنة ٩٤٣هـ/٢٠ يناير ١٥٣٧م . أولهما في سن المراهقة واسمه محمد قطب خان ، وثانيهما طفل عمره سنة واحدة ولد في مكة ولم يُذكر اسمه . وأقام الوزير حفل الختان بحضور جماعة محدودة منهم قاضي الشافعية المعزول وقاضي المالكية وأصحابهما (٣٣) .

أما ابنه الكبير قطب خان المولود بالهند فهو الذي خلف والده في وزارة الدولة الهندية بعد أن قتل مع سلطانه محمود (٣٤) .

كما كان مع آصف خان في مكة أخوه حميد الملك الذي التحق به في شهر رمضان من سنة ٩٤٢هـ/ مارس ١٥٣٦م إذ جاء مرافقاً لعمة السلطان بوصفه وزيراً ثانياً للدولة الكجراتية . وأقام هذا الأخ وليمة لأهل مكة في ذكرى موت والده (وهي عادة أهل الهند في ذلك العصر) كما سافر حميد الملك في نفس العام إلى المدينة المنورة وفي طريق عودته خرج عليه الأعراب وقتلوا بعض جماعته وأخذوا بعض أمتعته وعاد هو سالماً إلى مكة حيث سافر بعدها إلى بلاد الهند في مراكب مُحملة بالكثير من البضائع ومنها السمن (٣٥) .

ومن أخبار آصف خان العائلية أنه تزوج بمكة في سنة ٩٤٣هـ/١٥٣٦م من امرأة هي ابنة الخواجا جلال الدين ابن خطيب الباب الحلبي وأمها مكية ، إلا أن زواجه هذا لم يدم طويلاً فقد فارقها في جمعته (٣٦) .

وفاة الوزير آصف خان :

قُتل آصف خان في المؤامرة التي قُتل فيها السلطان محمود شاه ملك الدولة الكجراتية بالهند في الثالث عشر من شهر ربيع الأول لعام ٩٦١هـ/ ١٦ فبراير ١٥٥٤م وذلك التاريخ يذكره لنا الجزيري في الطبعة الثانية من كتابه نقلاً عن القاضي عبد الله بن ظهيرة الحنبلي الذي كان بالهند ليلة مقتل السلطان ، وروى

للجزيري أن السلطان محمود أكرمهم بحسن الضيافة في وليمة أعدها للفقهاء والعلماء بالهند في تلك الليلة التي غَدَر فيها به أحد مماليكه من خاصة رجاله ودخل عليه وهو نائم وذبحه ، ثم استدرج يطلب الوزراء على لسان السلطان فقتلهم الواحد تلو الآخر ومنهم الوزير آصف خان حتى بلغ عدد المقتولين نحو عشرة أنفار.

ويذكر الجزيري كذلك أن هذه الأخبار اطلع عليها أيضاً في قطعة من تاريخ صاحبه العلامة محمد الشلح المكي ، ويروي كيفية المؤامرة التي سقط فيها السلطان محمود شهيداً هو ووزراؤه (٣٧) .

ويؤكد العيدروسي هذه الواقعة بنفس التاريخ وبقريب من هذه التفاصيل بأن هناك مؤامرة حيكت لقتل السلطان دبرها أحد خدمه مع بعض الوزراء والحراس بدس السم له في شرابه ثم ذبحوه هو وطبيبه واستدرجوا يطلبون الوزراء فقتلوهم الواحد تلو الآخر بأسلحتهم وشاعت الفوضى في البلاد (٣٨) . بينما يورد الجزيري نفسه في الطبعة الأولى من كتابه تاريخاً مختلفاً لحادثة القتل هذه فيذكرها في أحداث سنة ٩٥٧هـ/ ٦ إبريل ١٥٥٠م وأنها في الثامن عشر من ربيع الأول كانت وفاة السلطان محمود ملك الهند وقتل معه وزيره الأعظم آصف خان (٣٩) .

ولا ندري سبب هذا التناقض في رواية الجزيري نفسه وهو الذي اعتمد في روايته السابقة في النقل عن القاضي عبد الله بن ظهيرة الذي حضر يوم الوفاة وفي النقل عن تاريخ محمد الشلح المكي . ويورد الحسني مقتل السلطان محمود شاه في عام ٩٦١هـ/١٥٥٤م دون أن يذكر مقتل الوزير آصف خان معه (٤٠) .

أخلاق وتدين آصف خان :

لاشك أن شخصية الوزير آصف خان قد تمتعت بأخلاق عالية مع التدين

والتواضع والكرم وحُسن الخُلق . ويستنتج ذلك من أعماله بمكة المكرمة والمدينة المنورة ، ومن إغداقه على أهلها بالهبات والعطايا ، ومن صلاحه وعلمه وتقواه فأحبه أهل مكة وذكروا فضائله وأعماله . وينقل لنا جار الله بن فهد في حديثه عن هذه الشخصية ما يجعلنا نحكم عليها ونصنفها ونضعها في مكانتها . فعن تدينه يذكر أنه اعتمر حال وصوله إلى مكة (٤١) . وفي مواضع أخرى عديدة يذكر تعدد العمرات التي اعتمرها (٤٢) . وعلى الرغم من أنه لم يذكر له حجة فإن الأمر لاشك فيه لما كان عليه الوزير من تدين وحضور دائم للصلاة في المسجد الحرام . وفي ذلك يقول عنه العيدروسي : " أنه مكث بمكة أكثر من عشر سنين مشتغلاً بالعبادات وأنواع الطاعات ، حتى حكي أنه أقام بمكة تلك المدة لا يُعرف أنه ترك الجماعة فيها مع الإمام بالمسجد الحرام في فرض واحد من غير مرض ونحوه " (٤٣) ، وفي موضع آخر للعيدروسي يقول عنه : " كان الوزير آصف خان رجلاً صالحاً جواداً ممدوحاً شريف النفس عالي الهمة ذا تهجد وأوراد " (٤٤) .

مكانته الثقافية :

عندما وصل آصف خان إلى مكة المكرمة كان على درجة عالية من الثقافة والعلم والمعرفة ، جامعاً بين الثقافتين الهندية والعربية بلغ إلى درجة جعلت من يكتب عنه يصفه بأنه " المسند العالي " وهي صفة يوصف بها أهل الحديث من العلماء . ولا نستغرب ذلك على رجل عاش وتربى في كجرات الإسلامية التي حفلت بالمدارس العلمية ومن أشهرها : مدرسة الشيخ عثمان ، ومدرسة خان سرور ، ومدرسة حسام الدين ، والمدرسة العظيمة ، وكلها مدارس نشرت العلم في عصره في مختلف التخصصات وخاصة علم الحديث الشريف (٤٥) . ورغم أنه ليس لدينا نصٌ يثبت تفاصيل دراسته بتلك المدارس ، إلا أن أقوال مَن كتبوا عنه توضح وتُثْبِتُ ذلك . فيقول العيدروسي واصفاً إياه بأنه : " اشتغل بالعلم حتى مهر في كثير

من الفنون " (٤٦) . وعندما قدم آصف خان إلى مكة المكرمة أحضر معه كتبه . وفيها زار المكتبات المكية الكبيرة العامة والخاصة وعقد مجالس العلم وشارك فيها وسعى لشراء المؤلفات والكتب واقتنائها . وتثبت النصوص المنقولة أنه كان ميالاً لعلم الحديث ، عالماً به وبكتبه بارعاً فيه روايةً وسماعاً حتى اعتبره مَن عرفه في مكة من علمائها بأنه من بين العلماء المسندين للحديث ، فوصفه جار الله بن فهد في كتابه نيل المنى " بالوزير المسند العالي " وكرر ذلك الوصف مرات عديدة (٤٧). كما يذكره بنفس اللقب محمد بن صالح الكناني المدني في كتابه اللؤلؤ والمرجان فيقول : " مولانا المسند الأعلى عبد العزيز آصف خان " (٤٨) ، وفي موضع آخر من كتابه يصف معرفة الوزير بالأدب فيقول عنه : " ملك عنان الأدب بالاستحقاق ، وسلك عيان الأرب فجاوز التقييد والإطلاق " (٤٩) .

وأسهب العيدروسي في توضيح مكانة الوزير آصف خان الثقافية والعلمية وحبه لأهل العلم بمكة وتشجيعه لهم طوال سنواته الثلاثة عشر التي عاشها فيها فيقول عنه : " كان محباً لأهل العلم محسناً إليهم ، مؤلفاً لأهل الفضل مشفقاً عليهم حتى نفق العلم في زمنه بمكة نَفاقاً عظيماً، واجتهد أهله فيه اجتهاده بالغاً ، وثاب الطلبة وعكفوا عكوفاً باهراً عليه ، وبحثوا عن الدقائق لينفقوها في حضرته ، ... كل ذلك لإسباغه على المنتسبين إلى العلم من صنوف الإحسان ، وواسع الامتنان ، وهوامع الإنعام ، وواسع الإكرام ، ما لم يسمع بمثله عن أهل زمنه ومن قبله بمدة مديدة . حتى قال بعض العلماء : قد أذكرنا ذلك ما يُحكى عن الخلفاء والبرامكة وأبان لنا حقيقة ما في التواريخ عنهم ، حتى قيل إنه أنفق بمكة في نحو سنة مائة وخمسين صندوقاً ذهباً " (٥٠) .

وقد وردت روايات للكثير من الأحداث ذكرها لنا جار الله بن فهد تؤكد اهتمامات الوزير آصف خان بالكتب والجلسات العلمية سنذكرها للاستدلال على

المكانة الثقافية لهذه الشخصية المنوطة بالدراسة :

- فبعد شهر ونصف من وصوله إلى مكة واستقراره في منزل استأجره شرع في القيام بحركة علمية واضحة وبدأ يجمع الكتب الكبيرة . ففي رجب سنة ٩٤٢هـ/ ديسمبر ١٥٣٥م طلب آصف خان من الشيخ جار الله بن فهد أن يُعيره بعض الشروح الكبيرة على صحيح البخاري منها كتاب فتح الباري ، على صحيح البخاري من تأليف كبير المحدثين الشيخ ابن حجر العسقلاني (٥١) ومن الطبيعي أن مثقفاً مثله سيقصد مكتبة من أكبر مكتبات مكة هي مكتبة بني فهد (٥٢) فما كان من جار الله بن فهد إلاّ أن أرسلها له مع أحد أخوانه .

- وخلال إقامة آصف خان بمكة كان يجمع الكتب ويبحث عن نوادرها ويحاول أن يشتري بعضها من المكتبات العائلية بمكة ، ففي منتصف شهر جمادى الأولى سنة ٩٤٣هـ/١٥٣٦م بعد أن توطدت العلاقة بينه وبين المؤرخ جار الله بن فهد طلب الوزير آصف خان من صاحبه جار الله أن يستبدل كتاب جامع الأصول للحافظ ابن الأثير بمبلغ خمسمائة أشرفي ذهباً (٥٣) . ولقد عرض هذا المبلغ لاستبدال الكتاب لأن كتب المكتبات العائلية تُعتبر موقوفة والوقف لا يُباع . إلا أن مذهب الحنفية يرى عدم صحة الوقف المنقول والكتاب منقول لذلك يمكن تعويضه بشيء آخر . لكن جار الله بن فهد امتنع من ذلك لأن مذهبه شافعي والشافعية لا يرون ذلك . ثم كتب جار الله فتوى في عدم جواز بيع الوقف المنقول وقدم هذه الفتوى للوزير ، ووضع مؤلفاً صغيراً في الموضوع سماه " الإسعاف ، في حماية كُتب الأوقاف " وأطلعه عليه فترك الوزير الأمر وقبل امتناعه واعتذاره (٥٤) .

ومن عناية آصف خان بالكتب واهتمامه بها أنه كان يستعيرها من العلماء أصحاب المكتبات الخاصة ويساوم أصحابها في شراء بعضها كما فعل مع جار الله ابن فهد ، ولكن عندما بلغه وفاة ملكه سلطان الهند بهادر شاه يبدو أنه أيقن بقرب

مغادرته لمكة " فتشوش وتنبه لنفسه بردّ الكتب التي استعارها من الناس أو ساوم في بيعها " (٥٥) .

كما أن آصف خان كان يجمع الناس لقراءة القرآن الكريم في الحرم المكي في مناسبات عديدة ويبذل لهم الهبات والعطايا ومن هذه المناسبات : أنه في رجب سنة ٩٤٢هـ/ ديسمبر ١٥٣٥م أمر بقراءة سورة الأنعام ثم الدعاء لسلطانه بهادر شاه في كل صباح خلف مقام الحنفية ، فعين لذلك خمسين نفراً من العرب والعجم وعلى رأسهم الشيخ محمد بن أحمد البخاري ، وكان من بين جماعة المعينين جار الله بن فهد . ويتدخل رجال السياسة في محاولة إبطال ذلك فيرسل نائب جدة أمراً بإبطالها وذلك بإيعاز من قاضي الشافعية عبد اللطيف باكثير وهو ناظر المسجد الحرام . ويفسر لنا جار الله هذا الموقف بأنه جاء بناءً على تدخل أناس من قرابة ملك المغول الذي كان معادياً لسلطان الهند (٥٦) .

ومما يدلّنا أيضاً على ثقافة الوزير آصف خان واحترامه للعلم والعلماء أنه كان يجمع كبار العلماء في بيته من مختلف المذاهب والأقطار ليحضروا قراءة كتابٍ هامٍ مثل كتاب صحيح البخاري الذي كان يقرأ في رجب سنة ٩٤٢هـ/ ديسمبر ١٥٣٥م أي بعد وصوله إلى مكة بشهر ونصف تقريباً .

وإذا كان الحاضرون في أغلبهم من أكابر أهل مكة إلا أنه قد يحضر هذه الدروس بعضاً من أصاغرها مرتجين بره لأنه كان كثير البر على الحاضرين (٥٧) .

- كما اهتم آصف خان أيضاً بعقد مجالس لقراءة القرآن الكريم والذكر في المدارس وبخاصة المدارس الهندية بمكة المكرمة . ففي ربيع الأول من سنة ٩٤٣هـ/ أكتوبر ١٥٣٦م شرع آصف خان في تعيين جماعة من العرب والعجم لقراءة رَبْعتيْن (٥٨) إحداهما في الصباح والثانية في الظهر ، وتنعقد القراءة في

المدرسة المظفر شاهية التي أسسها والد السلطان بهادر شاه بمكة عند باب الصفا . وكانت كل مجموعة من القراء تتكون من خمسة عشر نفراً وقد يزيدون . أما شيخها في الصباح فهو محمد بن أحمد البخاري وفي الظهر جعفر بن عصفور الكازروني . وحضرها عبد القادر بن فهد أخو جار الله وعمر الرضي صهره وجمال الدين الشلح المؤرخ صاحبه ، ولعل جار الله هو الذي رشح هؤلاء للقراءة (٥٩) .

- وفي مجمع علمي آخر يطلب الوزير آصف خان من الشيخ جار الله بن فهد قراءة كتاب شمائل النبي ﷺ للحافظ أبي عيسى الترمذي وذلك في المدرسة الباسطية وشرع الوزير نفسه في قراءة أول الكتاب ، ثم أمر للجميع بالطعام والحلوى ، ورغب منهم الحضور لتتم القراءة في يوم مولد النبي ﷺ . ويروي جار الله بن فهد مشاركته في قراءة الشمائل النبوية فيشرح لنا بالتفصيل ما حدث له في هذا المجلس الذي حضره للوزير وأن بعض الأكابر على حدّ قوله قد أشار عليه بوضع مختصر لمولد قاضي القضاة شمس الدين ابن الجزري المسمى " التعريف ، بالمولد الشريف " في سيرة الرسول ﷺ ليقرأ في مجلس الوزير هذا وأنه اختصره بالفعل وأضاف في درس السيرة هذا " فوائد في آخره وأوصافاً لحال الوزير في أوله " إلا أن ذلك المؤلَّف لم يَعُدْ على ابن فهد بالخير . فقد سعى الحساد في الوشاية واستباحوا عرضه فندم على ذلك التأليف وشعر بأنه أخطأ حين بالغ في مدح الوزير لينال العطايا والمال ، فعاد عن ذلك واستشهد بأحاديث رسول الله ﷺ في بغض التقرب للأمراء منها قوله ﷺ : " إن من أبغض القراء إلى الله الذين يزورون الأمراء " (٦٠) إلاّ أنه أكمل الحضور في مجالس الوزير . وفعلاً تمت هذه القراءة للشمائل النبوية بحضرة الوزير آصف خان في ١٢ ربيع الأول سنة ٩٤٣هـ/ ٢٩ أكتوبر ١٥٣٦م وقدم بعدها الوزير للحاضرين سماطا من الأطعمة والحلوى كعادته ، كما قسم على الأكابر الذين حضروا مجلسه من مختلف الطوائف والملل

هدايا من القماش وأموالاً نقدية ، وأرسل إلى جار الله بن فهد " بقجة " [٦١] فيها صوف وشاشين وبيرمين[٦٢] مقدار ثمنها نحو أربعين أشرفياً ، فشكر الله سعيه " [٦٣] وذلك مقابل قراءته التي تقدمّ ذكرها .

وقد يقوم آصف خان بدعوة أكابر علماء مكة إلى بيته لقراءة كتابٍ كبيرٍ في الحديث فيجتمع الناس في جلسات عديدة لقراءته في أكثر من جلسة علمية . من ذلك : أنه دعى عالم مكة الشيخ أحمد بن حجر الهيتمي إلى قراءة كتاب الشفاء تأليف القاضي عياض في جلسة اجتمع فيها كبار القوم منهم مفتي المالكية محمد الحطاب الطرابلسي المغربي . وخلال مدة القراءة أصيب الشيخ ابن حجر بحمى ومرض [٦٤] فترك قراءة الشفاء ومع ذلك وجّه له الوزير آصف خان هدية تتمثل في: كسوة صوف وشاشين وبيرم وقطعة ذهب يُقال زنتها خمسة وعشرون مثقالاً من عود وماء ورد ، ثم أمر بختم الشفاء في منزله فقرأ بنفسه ورقة من آخر الكتاب وختمه [٦٥] .

وقد يدعو الوزير لقراءة كتب الحديث وتدارسها ابتهالاً إلى الله لصرف الاعتداء على سلطانه بالهند ، فقد دعى عالم مكة جار الله بن فهد لقراءة صحيح البخاري والابتهال إلى الله سبحانه وتعالى لإعانة سلطان الهند بهادر شاه . وانتظمت هذه القراءة في المسجد الحرام وحضرها جماعة من المشائخ والفضلاء الأعلام . وعند الختام أكرم الوزير آصف خان القارئ وجماعة من الحاضرين بعطايا وُهبتْ لهم [٦٦] .

كل هذه النصوص التي أوردناها تدعم ما ذكرناه عن مكانة الوزير الثقافية ومشاركاته في مجالس العلم التي حرص على إقامتها بمكة المكرمة في بيته تارة وفي المسجد الحرام تارة أخرى.

علاقات آصف خان السياسية والاجتماعية :

عاش الوزير الكجراتي بمكة فربطته علاقات عديدة منها السياسية كالتي كانت له بامرائها أو كالتي قامت بينه وبين السلطة العثمانية التي خضعت لها البلاد المقدسة في تلك الفترة . كما قامت بينه وبين أهل مكة علاقات وطيدة منها ما كان بينه وبين العلماء ومنها ما كان بينه وبين العامة . ثم ما كان له من مبرات وأعمال خير لمكة وأهلها ، كل تلك النقاط نحاول الحديث عنها بالتفصيل في ثنايا هذا العرض .

علاقة الوزير آصف خان بأمراء مكة وحكامها :

اتّسمتْ علاقة الوزير آصف خان بأمير مكة أبي نمي محمد بن بركات الحسني (٦٧) بالتقدير والمحبة . وهذا ما استنتجناه من أخبار مؤرخ مكة جار الله بن فهد في كتابه نيل المنى حيث أورد ذكر اللقاءات المتبادلة بين أمير مكة والوزير الهندي في العديد من المناسبات مع إرسال الهدايا المتبادلة بين الطرفين ، ولا عجب في ذلك فآصف خان شخصية سياسية مرموقة قدمت إلى مكة بأموالٍ وخيرات كثيرة .

فبمجرد استقرار آصف خان بمكة المكرمة بعد قدومه في أواخر شهر شوال سنة ٩٤٢هـ/ إبريل ١٥٣٦م صادف عودة أميرها أبي نمي إليها بعد خروجه لقتال الخارجين عليه ، فتوجه الوزير الهندي للسلام عليه وصحبته كبار الهنود من أتباعه وفرح بهم الأمير وأكرمهم (٦٨) .

وبعد ثلاثة أيام أي في مطلع ذي القعدة من نفس العام يقول مؤرخ مكة جار الله : " وفي صبح ثانيه توجه صاحب مكة السيد أبو نمي للسلام على وزير الهند آصف خان في منزله ببيت ابن الشيخ علي عند باب العجلة فسقاه سكراً مذاباً

وطباقية وتنبلا وغيره على قاعدة بلد الهند " ، وبعد خروج الأمير من عنده أرسل له آصف خان مبلغاً من المال مع صديقه الإيجي فردّ الشريف بقوله : " ما توجّهتُ إليه إلاّ لإكرامه لا لطلب شيء من نقده " (٦٩) .

وبعد هذه الزيارة الودية بيومين خرج أمير مكة وصحبته عياله ونساؤه متوجهاً إلى جدة فخرج لوداعه ناحية الشبيكة أسفل مكة في منطقة كُدَي الوزير آصف خان والقاضي المالكي على خيول " ورجع الوزير وهو راكب على فالكي عُمِل له في مكة وهو عَجَلٌ يسوقها فَرَسان " (٧٠) .

واستمرت عادة الذهاب للسلام على أمير مكة في أكثر من مناسبة ، ففي رمضان من سنة ٩٤٣هـ/ فبراير ١٥٣٧م ذهب آصف خان مع أعيان أهل مكة وأرباب الوظائف للسلام على أميرها أبي نمي بن بركات (٧١) .

وعند وصول المبرات من سلطان كجرات لتوزيعها في مكة المكرمة كعادة ملوك الهند ، يتولّى الوزير الهندي آصف خان توزيعها ، وبالتأكيد سيكون لأمير مكة منها مقداراً وحصةً ، وهذا ما كان في مطلع المحرم من العام الموالي لقدوم الوزير سنة ٩٤٣هـ/١٥٣٧م حيث وصلتْ المبرة السلطانية المظفرية البهادر شاهية الملكية ففاوض آصف خان الأمير أبا نمي في توزيعها وكانت حصته فيها ثلثها كعادة أسلافه . أما عن ماهية هذه الهبات فلقد ضمت هدايا وتحفاً ثمينة وسبائك ذهب مختومة وأموالاً نقدية من الأشرفي الذهب ، وحُرّرت أسماء الذين ستوزع عليهم من القضاة والأعيان وسُلمت لكل مستحق مقابل إيصال مختوم بختم الوزير على كل وصل ، ووُضعتْ تلك الأوصال عند ميا عمر الهندي أحد خواص الوزير(٧٢) .

- وبلغت هذه العلاقة إلى درجة أنه إذا غاب أمير مكة منها يرسل بالرسائل

إلى القضاة فيها ويراسل أيضاً الوزير الهندي . مثلما حدث في شوال من نفس العام ٩٤٣هـ / فبراير ١٥٣٧م عندما كان الأمير بجهة اليمن أرسل قاصده " ومعه عدة أوراق لقاضي الشافعية المفصول البرهاني بن ظهيرة وقاضي المالكية القاضي ابن يعقوب ووزير الهند آصف خان وغيرهم من الأعيان " وتضمنت هذه الأوراق أخباره ودخوله إلى حلي (٧٣) بعسكره الذي بلغ ستمائة فارس وسبعة آلاف راجل وقصده التوجه لمحاربة خصمه صاحب جازان (٧٤) . وإن في إرسال هذه الأخبار من أمير مكة لرجال دولته ومنهم الوزير الهندي آصف خان لدلالة على مكانته عند الأمير .

علاقة الوزير بالدولة العثمانية :

اتسمت المرحلة التاريخية التي عاشها الوزير آصف خان بمكة المكرمة بالكثير من التحركات والخلافات بين الدول الإسلامية في الشرق والغرب وتداوُل هذه الدول على منطقتين هامتين في العالم الإسلامي هما : منطقة مصر والحجاز التي كانت تحت سلطة المماليك ثم آلت سلطتها للدولة العثمانية سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م. ومنطقة بلاد الهند التي تعددت فيها الممالك وكان مِن أهمها سلطنة كجرات وسلطنة دلهي اللتان وقعت بينهما حروب كثيرة كان فيها الكرّ والفرّ حتى ظهور الغزاة البرتغاليين الذين استفادوا من ذلك الخلاف وركّزوا أقدامهم ، ليس في بلاد الهند فقط ، وإنما في بعض الجهات من الخليج العربي مسيطرين بذلك على المراكز التجارية الإسلامية .

ولاشك أن وجود الدولة العثمانية بقوتها وسيادتها على العالم الإسلامي جعلها من الممكن أن تكون منقذة للمنطقة الهندية ، فكان من الطبيعي أن تطمع الدولة الكجراتية في حماية العثمانيين لها من عدوَّيْها وهما : البرتغاليون من ناحية وسلطنة دلهي من ناحية ثانية . فاستنجدت بهم ، خاصة وأن العثمانيين استطاعوا أن

يوقفوا أخطار النصارى البرتغاليين الذين كانوا يهددون البحر الأحمر وخاصة جدة وبلاد اليمن .

ولم يكن لدى السلطان بهادر شاه الكجراتي أولى من وزيره آصف خان ليربط العلاقات الحميدة مع العثمانيين ، فهو في مكة التابعة للسلطة العثمانية ، وهو ذا علاقة طيبة مع الوالي المصري العثماني بها ومع الأشراف من أمرائها وأيضاً مع أهلها من العلماء والعامة . كما أنه بنى علاقات طيبة مع والي مصر العثماني ، ولقد قدّم له ولجماعاته الهدايا الثمينة . كما أرسل الهدايا الأثمن إلى الخنكار (٧٥) سلطان الدولة العثمانية ، وسافر إلى مصر لبناء هذه الروابط فلقي فيها كل الاحترام والتكريم ، ومنها سافر للباب العالي للقاء السلطان سليمان (٧٦) وطلب النجدة منه. وتظهر سياسة السلطان الهندي الكجراتي في تصرفات وزيره آصف خان وهو بمكة المكرمة فكان سعيه لربط الأواصر السياسية بين سلطانه وسلطان الدولة العثمانية . وسُجّل ذلك في ما حكاه جار الله بن فهد من تصرفات هذا الوزير تجاههم وتصرفاتهم تجاهه في ما يلي :

- لقد كانت علاقة آصف خان مع نائب الديار المصرية مباشرة كما حدث في ذي القعدة من سنة ٩٤٢هـ/١٥٣٦م حين قدم وفد الحاج المصري وبصحبته الكيخيا (٧٧) نائب الديار المصرية الرومي فقصد الوزير الهندي آصف خان ومعه رسالة من السلطان العثماني يطمئن خاطره وينعم عليه بمبلغ مالي وأرزاق " عشرة آلاف أشرفي وثلاثمائة حمل من الأرز والقمح والسكر والقطر وغير ذلك للمنفعة فزاد سروره وعظمته " ، كما حمل الكيخيا إلى الوزير مرسوماً من السلطان " بإطلاق الخنكار لأموالهم ويسمح لهم بمعشرها " (٧٨) .

وبعد انقضاء موسم حج ذلك العام أرسل الوزير آصف خان مع ركب

الحاج المصري هدايا " سلطانه بهادر شاه لسلطان الروم والعرب والعجم إسكندر الزمان ، وصفوة الصفوة من بني عثمان ، أبي المظفر سليمان خان ، ثبّتَ الله له الأركان " وتتمثل هذه الهدايا في الجواهر الثمينة والذهب والتحف " (٧٩) . فكان من الطبيعي أن يردّ آصف خان على هدايا السلطان بهدايا لها قيمة تليق بمكانته .

ومن مظاهر العلاقة بين السلطان العثماني والوزير الهندي بمكة أن السلطان يرسل المراسيم والخُلعَ لأمير مكة وأعيانها ومنهم الوزير آصف خان . ففي رمضان سنة ٩٤٣هـ/ ١٥٣٧م وصل إلى مكة صحبة الركب المصري عشرة مراسيم وعشرة خُلع منه ستة لمكة وأربعة لغيرها من البلدان والتي لمكة مرسوم لصاحبها وولده ونائب جدة وللوزير الهندي وتوجّه القُصَّاد بأنفسهم لمنزل الوزير وسلّموه المرسوم والخُلعة. ثم سكنوا في مدرسة الأشرف قايتباي المجاورة لباب السلام والمسجد الحرام .

أما عن مضمون هذا المرسوم الواصل للوزير فهو إخباره بوصول نائب مصر الباشا سليمان وصحبته الأمير جانم الحمزاوي (٨٠) في رجب للإقامة بمصر لمدة شهريْن بنية تجهيز الجيوش والعسكر للخروج لبلاد الهند لنصرة السلطان بهادر شاه بأمر من الخليفة سليمان خان ابن عثمان ، وستكون هذه الجيوش بقيادة الأمير جانم الحمزاوي . وإن هذه الأخبار قد أسعدت الوزير وفرح لها (٨١) . وهذه العمارة الحربية ستجهز في السويس بإشراف كلٍّ من الأمير جانم الحمزاوي وسليمان باشا وفي نيتها التوجه لليمن والهند . وفعلاً عمل الاثنان على تجهيزها بالآلات والمؤن العسكرية وجميع ما تحتاجه من عدة وعتاد . هذا ما ذكره الجزيري إلا أنه يخالف جار الله في أن هذا الأمر بالإعداد للمراكب الحربية جاء في أخبار عام ٩٤٤هـ/ ١٥٣٨م وبعد زيارة آصف خان للسلطان العثماني في بلاده (٨٢) . وليس في أخبار ٩٤٣هـ/ ١٥٣٧م كما ذكر جار الله ، وهو التاريخ الأصح لأنه

الراوي المباشر للأحداث .

- ثم عادت الهبات من السلطان العثماني للوزير الهندي بمكة مع قاصدٍ من الديار المصرية في ذي القعدة من عام ٩٤٣هـ/١٥٣٧م ومعه مكاتبات للأعيان ومنها كتاب من السلطان العثماني للوزير آصف خان يذكر فيه أن عمدة الملك الهندي – أي مرسول ملك الهند من الوزير آصف خان إلى السلطان العثماني سليمان خان – قد توجه لزيارة القدس . مما يوضح إرسال المراسيل من الوزير بمكة إلى السلطان العثماني بالباب العالي ، وأن السلطان رد على هذا المرسول الذي قدّم له الهدايا بأن حمّلَهُ جملة من التحف والهدايا للوزير ولسلطان الهند بهادر شاه " ومن جملة ذلك من النقد والمماليك والقماش والعنبر ومن المأكولات" (٨٣) .

- ولم يقتصر الأمر على ذلك بل قرر الوزير آصف خان الخروج للقاء السلطان العثماني مبعوثاً من قبل سلطان دولته لطلب المساعدة من الخليفة العثماني سليمان خان فكان خروجه في ١٨ من شهر ذي الحجة سنة ٩٤٣هـ/١٥٣٧م مرافقاً لركب الحج المصري (٨٤) . وبصحبته جماعة من أصحابه وأتباعه " منهم إمام الحنفية السيد جمال الدين محمد بن أحمد البخاري الحنفي . واكترى مائة جمل لحمله وزاده والماء كل جمل بأحد عشر سلطانياً عن أربعة وأربعين أشرفيا جملتها ألف وأربعمائة أشرفي .. كتب الله سلامته ووجهه ورده سالماً غانماً بمحمد وآله آمين " (٨٥) . وبعد خروج آصف خان بثلاثة أشهر أرسل لجماعته بمكة مرسولاً من القاهرة يطمئنهم عن أخباره ويُعلِمهم بحسن استقبال نائب الديار المصرية له وزيادة كرمه معه وبأنه جهز له مركباً من الإسكندرية ليتوجّه للسفر به إلى السلطان العثماني في اسطنبول (٨٦) .

ولا يذكر لنا جار الله - مؤرخ مكة - تفاصيل هذه الرحلة ولم يحدثنا عن لقاء الوزير بالسلطان العثماني لأنه عادة يسجل ما يعرفه عن أخبار مكة . وبالرغم من أن الجزيري أورد خبر عودة الوزير آصف خان مع الركب الشامي في موسم حج عام ٩٤٤هـ/ مايو ١٥٣٧م بعد زيارته للسلطان العثماني - كما سبق أن ذكرناه في علاقة الوزير بأهل مكة - إلا أن الجزيري أيضاً لم يذكر لنا مهمة هذه الزيارة أو ما حدث فيها بالتفصيل ، ولكن أحد المؤرخين الأتراك أوضح لنا غاية هذه الزيارة فذكر أنه في عام ٩٤٤هـ/١٥٣٧م وصل إلى دار الخلافة العَظمى سفيرٌ من قبل صاحب كجرات – ولم تذكر اسمه – بغرض " طلب المساعدة ضد البرتغاليين الذين أغاروا على بلاده واحتلوا أهم ثغورها " [٨٧] وفي هذا إشارة إلى رحلة آصف خان وسفارته المذكورة آنفاً لنفس الغرض .

وبالرجوع مرة أخرى إلى مؤرخنا جار الله نجده يتحدث عن آصف خان وأنه بعد غياب عام عاد إلى مكة في موسم حج العام التالي ٩٤٤هـ/ مايو ١٥٣٨م وكان وصوله في سادس الشهر صحبه ركب الحاج الشامي بعد زيارته لحاضرة الدولة العثمانية ومروره بالقدس والخليل برفقة إمام الحنفية جمال الدين البخاري وقريبٍ لجار الله هو تقي الدين محمد بن خير الدين بن فهد [٨٨] .

وبتواتر أخبار مؤرخنا جار الله نستطيع أن نؤكد نجاح الوزير آصف خان في سفره للباب العالي ولقاء السلطان لأنه في شهر صفر من العام الذي يليه ٩٤٥هـ/ يوليو ١٥٣٨م جاءت الأخبار " بوصول المراكب والعسكر المجهزين من الأبواب الخنكارية الرومية إلى البلاد الهندية لغزو الفرنج المخذولين ، أعداء الله والمسلمين " [٨٩] بقيادة قائد العسكر نائب الديار المصرية سليمان باشا الخصي [٩٠] وأنهم متجهون إلى جزيرة كمران [٩١] في العاشر من المحرم وأن الباشا سليمان سيدخل إلى مكة للصلاة والدعاء والابتهال إلى الله في طلب النصرة على الأعداء

المخذولين من البرتغاليين ، وفعلاً وصلت المراكب إلى جدة وقيل إنها كانت ستون قطعة وقيل أنها نحو التسعين بل بزيادة قد تصل إلى المائة (٩٢) . وفيها من العسكر ما لا يعلمه إلا الله . وفي مستهل ربيع الأول اجتمع " الأروام " [الأتراك العثمانيون] بالحطيم في المسجد الحرام تجاه الكعبة المشرفة للصلاة والدعاء لنصرة عسكر السلطان العثماني والباش سليمان الخصي نائب الديار المصرية عند خروجه لمواجهة الغزو البرتغالي للهند (٩٣) .

وفي ذلك تأكيد على قوة العلاقة التي ربطت الوزير آصف خان بالسلطان العثماني وبسلطان الهند الكجراتي . فلم يتردّد خليفة المسلمين في إرسال الجيش والمدد لمساعدة الهنود رغم بُعد المسافة ومشقة الرحلة ، إلا أن عظم الهدف لنجدة المسلمين شجعه على إتمام ذلك .

واستمراراً لهذه العلاقات الطيبة نجد الوزير آصف خان في طليعة المستقبلين لرجال الدولة العثمانية مع أكابر رجال مكة عند قدومهم على البلد الأمين . فنجده في ذي القعدة عام ٩٤٥هـ/ إبريل ١٥٣٩م عندما وصلت الأخبار بقدوم الوزير الأعظم الباشا سليمان الرومي من جهة الهند واليمن إلى جدة خرج أمير مكة لاستقباله ، إلاّ أنه وصل قبله كيخيته – أي نائب الديار المصرية الرومي – واسمه سليمان فاستقبله في جدة القاضي الشافعي البرهاني بن ظهيرة والمالكي النجمي بن يعقوب ووزير الهند آصف خان وركبوا معه إلى مكة ونزل الكيخيا في مدرسة الأشرف قايتباي بمكة وأقام بها يومين .

وفي اليوم الثاني كان قدوم الوزير سليمان لبندر جدة ومعه المراكب والعساكر قدَّر الجزيري عددها بنحو " الأربعين مركباً " (٩٤) ومن ثَم دخل إلى مكة المكرمة فخرج لاستقباله في أعلاها " صاحب مكة السيد أحمد بن أبي نمي

وقاضي مكة الأفندي مصلح الدين الرومي الحنفي والشافعي البرهاني بن ظهيرة والمالكي التاجي بن يعقوب ووزير الهند آصف خان راكبين أمام الباشا وهو خلفهم بمفرده وخلفه السنجق والطبل والزمر " [٩٥] .

ومن آخر الأمثلة التي تدل على العلاقات الودية والداعمة من السلطة العثمانية للوزير آصف خان ما كان من مناصرتها له في الرواية التالية : فبعد أن أتم الوزير مهمته في مكة وهي مرافَقَة عيال السلطان بهادر شاه إلى أن رتّب لهم سفن عودتهم إلى الهند بعد استقرار الأحوال على يد السلطان محمود شاه الذي طالب الوزير بإرسال أسرة عمة بهادر شاه وإعادتهم ، فأتم آصف ترتيبات العودة لهم وإرسالهم في نهاية شهر صفر من عام ٩٤٦هـ/ منتصف يوليو ١٥٣٩م . عندها جاءه مرسول من نائب الديار المصرية وهو داود باشا الخصي ومعه مراسيم من الشريف أحمد ابن أمير مكة أبو نمي الحسني ومضمون الرسالة : " منع عيال سلطان الهند من السفر إلى بلدهم . فقال الشريف : لا علْم لي بسفرهم وأمْرهم كان لوزيرهم ونائب جدة ... فأجاب الوزير بظهور مرسوم خنكاري من باب السلطان لمّا توجه بالإذن لهم بالسفر أي وقت أرادوا ، فكان سفرهم من سعده ودرايته ، فالله تعالى يسلمه مع جماعته " [٩٦] .

وفي هذه الرواية دليل على دعم السلطان العثماني للوزير وإعطائه الصلاحية والأمر في التصرف في كل ما يخص أسرة السلطان الكجراتي بمكة وتنقلاتهم وأن أمر التصرف في شئونهم يرجع إلى صلاحيات الوزير المسئول عنهم بمكة المكرمة .

الثروات التي قدم بها الوزير آصف خان وما دار حولها :

إن الأموال والثروات مطمع للنفوس البشرية في كل زمان ومكان . وبما أن

الوزير آصف خان قدم إلى مكة المكرمة ومعه من الأموال والثروات الهائلة القادمة على متن المراكب التي وصفها جار الله ونقل عنه الجزيري ذلك الوصف فقال : " إن فيها ثلاثمائة وخمسين صندوقاً من التُّحَف والنقد الذهب المضروب وغيره ، وفتح بعضها فوجد فيه سبعة آلاف دينار ، وفي بعضها عشرة آلاف ، وعيّن فيها مبرة لأهل المساجد الثلاثة وغيرهم . فوضعها نائب جدة الرومي في حواصل الفَرْضَة (٩٧) ومنعهم من الوصول إليها حتى يأتيه جواب من الخنكار أو ملك الأمراء بالديار المصرية ، وذلك أنه رأى ما هاله من النقود لكثرتها ".

وجاء ضمن هذه الثروة مخصصات قدّمها الوزير لأصحابها كهدايا وعربون صداقة . فلقد عُيّن للسلطان العثماني " حياصة مكللة بالجواهر الثمينة ، وسيف مثمّن لنائب الديار المصرية ، وغير ذلك لوزيره وأركان دولته ، وصاحب مكة وأتباعه " ورغم ذلك فنائب الديار المصرية بجدة لم يمكنهم من هذه المتعلقات إلا بما يحتاجونه من الفرش والأثاث والملابس (٩٨) .

وبذلك وضعت الأموال المرافقة لآصف خان تحت الحفظ والحماية حتى يأتي أمر السلطان العثماني فيها . والحقيقة أن ذلك الأمر لم يتأخر ففي ذي القعدة من نفس العام قدمتْ الأخبار بوصول ركب الحاج المصري ومعهم قاصد للوزير الهندي - قيل إن اسمه يافعي - برفقة كيخيا نائب الديار المصرية الرومي بمكاتبات للوزير لتطمين خاطره وذهبا إليه في منزله " ودفعا له مراسيم بإطلاق الخنكار لأموالهم ويسمح لهم بمعشرها " ليس ذلك فقط وإنما أرسل السلطان الهدايا للوزير التي قُدّرتّ بمبلغ عشرة آلاف أشرفي وثلاثمائة حمل من الأرز والسكر والقطن وغيرها (٩٩) . وفي ذلك مخالفة لما أورده الجزيري عند ذكره موت آصف خان فقال عنه : إنه هو الذي " حضر بخزانة الهند إلى مكة المشرفة وأخذت منه للسلطان سليمان " (١٠٠) . وهو تعليق من الجزيري يناقض فيه نفسه عندما ينقل عن

المؤرخ المكي جار الله خبر وصول ركب الحاج المصري لعام ٩٤٢هـ/١٥٤٦م فيقول : " ووصل صحبة أمير الحاج حكم من الباشا بمصر لإطلاق الخنكار لأموال الهند وإكرام آصف خان " (١٠١) . ويؤكد جار الله أن ذلك الخلاص لأموال الوزير وصله قبل الطلوع لعرفات ونُقلت إليه جميع الثروات فوضعها ببيته وابتهج بها ودعى للسلطان . وعلى هذا النص كتب قطب الدين النهروالي بخطه زيادة على كلام جار الله ما نصه : " فتصدق الوزير بمبالغ كبيرة من الخزانة " (١٠٢) .

وقام آصف خان بردّ الجميل للسلطان على كرمه وإرجاع ثروات الهنود إليه بأن أرسل له مع عودة الحجاج هدايا سلطانه بهادر شاه " من النطاق المكلل بالجواهر المثمنة وغيره من الذهب والتحف "(١٠٣).

ويبدو أن هذا التمكين للوزير من الثروات لم يدم طويلاً إذ أنه عندما وصلت الأخبار في ذي القعدة من عام ٩٤٣هـ/ إبريل ١٥٣٧م بمقتل السلطان الكجراتي بهادر شاه على يد البرتغاليين غدراً (١٠٤) ، قدم سليمان الرومي نائب السلطان بجدة ليقدم العزاء للوزير بمكة ويطلب منه الختم على متعلقات السلطان بهادر شاه إلا أن الوزير رفض ذلك ، فعاد نائب جدة مرة أخرى ومعه القضاة الأربعة وكرر الطلب إلى الوزير بالختم على حواصل مال السلطان بهادر شاه ، وزيادة على ذلك أن يترك جماعة من عسكر الأتراك العثمانيين لحراسة هذه الأملاك حتى يصل الأمر فيها من السلطان العثماني سليمان خان . إلا أن الوزير آصف خان امتنع مرة أخرى وحدثت مشادّة بين الاثنين فوافق الوزير على الحجر بشرط عدم تواجد العسكر عند أهل السلطان ، فقال له الوزير : " خذ المال عندك ولا يجلس أحد من " الأروام " [عسكر الأتراك العثمانيين] عند عيال السلطان بهادر شاه ، ففرح بذلك النائب وأتى بجمال لحمله إلى سكنه في القصر المطل على باب إبراهيم . وعدة الصناديق مائتان وخمسون وهي في الأصل أزيد . وقال الوزير : إنه

تصرف فيها بإذن السلطان من النفقة على عياله وعسكره والمرتبات لأهل الحرمين والهدايا للخنكار ونائب الديار المصرية من الصناديق مائة ، وفي كل واحد منها ضُبِط ما فيه من النقد وغيره في ورقة ، وكَتب بذلك محضراً كتب القضاة خطوطهم فيه وأخذه الوزير عنده ... ويقال : إن نائب جدة لما نقل المال إلى منزله قبض الصناديق جميعها فجاء وزنها مائة وخمسة وعشرين قنطاراً ، وأنه فتح بعضها فوجد فيها بعض سِكّة قديمة من زمن محمد بن قلاوون وغيره وبعضها مَصاغ وبعضها سبائك من الذهب الخالص ، ويقال في كل صندوق سبعة آلاف من الأشرفية كل ألف بأربعة آلاف فيكون جملة ذلك سبعة لكوك " [١٠٥] .

ويتضح من النص مدى قلق الوزير على عيال السلطان واهتمامه بهذه الأمانة التي أنيطت به للحفاظ عليهم من كل ما قد يؤذيهم حتى نراه يرفض وجود وهم عسكر الأتراك العثمانيين أي جند السلطان لحماية الأموال ويتنازل بتسليم هذه الأموال لنائب السلطان بجدة حتى لا يسمح للجند بالبقاء معها عند أهل السلطان .

وبعد هذه الحادثة جاء خبر خروج الوزير آصف خان بعد انقضاء موسم الحج مع الركب المصري بصحبة جماعة من أتباعه [١٠٦] ومن الإسكندرية خرج في مراكب جهزها له نائب الديار المصرية في شهر ربيع الأول متوجهاً إلى إسطنبول للقاء السلطان العثماني [١٠٧] فقد يكون سبب زيارته للسلطان سليمان خان الحديث معه عن أموال وثروات سلطانه المتوفى بالإضافة إلى طلب النجدة العسكرية التي سبق أن تحدثنا عنها .

وفي منتصف شهر ربيع الأول سنة ٩٤٤هـ/ أغسطس ١٣٥٨م جاءت الأخبار بوصول الأمير جانم الحمزاوي أمين الديار المصرية قادماً من القاهرة إلى مكة وقصْده استلام الأموال الهندية بأمر من السلطان سليمان . وبعد بضعة أيام

اجتمع بالناس في الحطيم وقُرئتْ عدة مراسيم سلطانية ، ثم حضر إليه نائب جدة مصطفى الرومي الذي سبق أن توجّه بالصناديق إليها ثم عاد بها إلى مكة عندما سمع بقدوم الأمير جانم الحمزاوي من أجل تسلّمها فأحضرها ووضعها في المدرسة الأشرفية القايتبائية ، فخرجوا من المسجد الحرام وبصحبتهم السيد أحمد ابن أمير مكة أبي نمي (١٠٨) قاصدين المدرسة الأشرفية ليستلم الأميرُ الأموالَ ، ووزنوا الصناديق ووجدوا بعضها مختلّ الوزن أي أقلّ مما كان مُثْبتاً في الأوراق . فجعلها الأمير جانم في مسئولية نائب جدة مصطفى الرومي وبصحبته العسكر حتى يسلّمها للسلطان العثماني ويخرج بها عبر مصر إلى إسطنبول . وكثر الكلام عن قلة أمانة نائب جدة وخيانته بفتْحِ بعض الصناديق والتصرف في ما تحتويه. فما كان من نائب جدة إلا أن تقدّم إلى القاضي الرومي متهماً أحد العاملين لديْه من الأتراك العثمانيين بسرقة بعضٍ من العود الهندي (البخور) . وبعد التحقيق مع الخادم وضرْبه من قِبَل القائد الزيني مبارك الدهلكي حاكم الشريف الذي زاد عليه في التعذيب والضرب حتى كسر بعض أسنانه وكاد أن يقتله . وتوسّط الناس إلى القاضي الرومي فأَحْضر المملوك وسأله عن القصة فروى أن المفتاح كان معه أن نائب جدة وأرسل في طلبه ، فما فُقد من العود هو مسئولية النائب . ولام الأمير جانم نائب جدة لتخليه عن حراسة المال ووزن ما تبقّى من العود وجهز الصناديق " ثم في يوم الجمعة سابع الشهر [أي جماد الأول] برزت الصناديق من المال والعود على أربعة وستين حملاً وقاد كل حمل إنكشاري من العسكر وتوجهوا به صحبة نائب جدة والأمير جانم الحمزاوي إلى محطة العسكر بالمعلاة ووضع هناك في خيمة . ونوى الأمير الرحيل في ليلة السبت ثاني تاريخه " (١٠٩) ويضيف الجزيري : " ودخل في ثامنه إلى الديار المصرية " (١١٠) .

ورغم أن المصادر لم تُشر إلى أي تغيُّر في العلاقات بين الوزير الهندي

آصف خان والسلطان العثماني بسبب خروج كل تلك الصناديق والثروات الهندية من مكة وإرسالها إلى السلطان بإسطنبول ، فإن العلاقات ظلت ودية واستمرَّ تبادل الهدايا . ومن ثَم كانت عودة آصف خان من زيارة السلطان مع الركب الشامي في موسم حج ٩٤٤هـ/ مايو ١٥٣٨م كما ذُكر سابقاً . وأرسل بعدها السلطان الأمر للجيوش بالتجهز في مصر للخروج إلى الهند وتقديم المساعدة ضد الغزو البرتغالي، وما إلى ذلك من المظاهر التي تدلّ على قوة العلاقات ومتانتها وارتباطها دون أي تأثر بخبر الحجز على ثروات السلطان المتوفى بهادر شاه ، ولم نجدْ نصاً يبين هل أعيدت هذه الثروات أم لا ؟

ورغم ذلك ظل الوزير الهندي بمكة يواصل مبراته وهداياه الثمينة لأهلها وأمرائها وغيرهم من رجال الدولة العثمانية .

علاقة الوزير آصف خان بأهل مكة المكرمة :

اتسّمتْ هذه العلاقة بالمحبة والتقدير منذ الأيام الأولى من وصول الوزير الهندي إلى مكة إلى حين مغادرته لها وكأنما كانت هناك معرفة مسبقة من أهل مكة بشخصية الوزير القادم إليهم . وقد يكون هذا التقدير نوعاً من التعاطف ونوعاً من الكرم الذي امتاز به المجتمع المكي لاستقبال رجل سياسة خرج من بلده بمن معه من الأسرة الملكية خوفاً من اعتداء المغول عليهم ، ليلجأ لبلد الله الحرام فيجد الأمن والأمان ، وقابل ذلك تصرفات آصف خان وخلقه وكرمه . وبذلك استمرت هذه العلاقة الطيبة والتقدير المتبادل . وسنرى من التسجيل اليومي الذي رصده جار الله للأحداث ما يؤكد هذه العلاقة منذ البداية .

فبمجرد وصول الوزير وسكناه بمكة مع عيال السلطان في سنة ٩٤٢هـ/١٥٣٥م رصد جار الله استقبال أهلها بقوله : " هرع الأعيان من أرباب

الوظائف للسلام عليه ، وأرسلوا هداياهم إليه ، وفيها السكر والعسل والأغنام وغير ذلك " ثم يوضح ردة فعل الوزير آصف خان بقوله : " وجازاهم عليها بالقماش والنقد لكل واحد بقدر ما أرسل إليه نحو أربع مرات ودونها " وحرص آصف خان على تقربه من أعيان مكة المكرمة وجميع أهلها بالهدايا والهبات " ثم فرق الوزير آصف خان على أرباب الوظائف من القضاة والأئمة والشيبيين والمؤذنين والفراشين من الذهب والشاشات " (١١١) .

ومن مظاهر هذا التقدير وتلك المحبة أن تفتح أبواب الكعبة المشرفة خصيصاً للوزير الهندي كما حدث في رجب من نفس العام الذي قدم فيه وذلك بطلب من قاضي المالكية لشيخ الحجبة برهان الدين إبراهيم الشيبي فدخلها هو وجماعته ، وفُتحت في اليوم الثاني لعامة الناس (١١٢) .

وقد تتّسم هذه العلاقة ببعض الخلافات كما حدث لآصف خان مع القاضي الشافعي عبد اللطيف باكثير لمنعه قراءة سورة الأنعام بالمسجد الحرام لسلطان الهند . وتدخل السيد نور الدين أحمد بن عفيف الإيجي فناصَرَ الوزير وتقدم معه بشكوى لصاحب مكة الأمير أبي نمي المتواجد وقتها بجهة اليمن (١١٣) .

وبذلك نلاحظ وجود علاقة طيبة جمعت آصف خان بالسيد نور الدين الإيجي ففي موضع آخر يذكر جار الله أن الإيجي هو أحد المقربين للوزير . ووضح هذه العلاقة عندما تحدث عن إرسال آصف خان الهدايا لأمير مكة أبي نمي فقال : " أرسل له نقداً مع السيد نور الدين أحمد الإيجي أحد المقربين عنده " (١١٤) .

إلا أن هذه العلاقة تغيرت وانقلبت وأغلب الظن أن هذا التغير نتج عن خلاف حول نظارة بيوت أوقافٍ لسلطان الهند بمكة . ولم يذكر جار الله تفاصيل هذا الخلاف وإنما قال في خبر رغبة الإيجي للسفر إلى الهند : " وكان السيد نور

الدين أحمد ... الإيجي الشافعي توجّه لجدة للسفر لجهة الهند ساخطاً على وزير الهند باطناً مع اجتماعه به وسؤاله عن كتابة ورقة لسلطانه بالوصية عليه ، فكتبها له وهو يظن أنه يتوقف ويتكلم معه في إرضائه ، ونزوله لبيوت أوقاف سلطانه التي كانت نظره بمكة المشرفة .. " (١١٥) .

وهنا يتضح سبب تغير خاطر الوزير آصف خان على مُقرّبِه الإيجي بسبب تسلّطه على نظارة أوقاف السلطان الهندي مظفر شاه بمكة ، وتوقع الوزير من الإيجي أن يتحدث معه ويرضيه في ما كان من أمر نظارة تلك الأوقاف إلاّ أن ذلك لم يقع فتطور هذا الخلاف إلى درجة أن يشتكى الوزير آصف خان صديقه السابق الإيجي إلى أمير مكة الشريف أبي نمي الذي وعَدَه بنصرته كما ورد في نص جار الله بقوله : " فشكا عليه الوزير آصف خان وأنه وضع يده على أوقاف سلطان الهند مظفر شاه والد سلطانه ، فوعده الشريف أبو نمي بنصرته " .

ويصل التعدي من الإيجي إلى درجة أن يتعرّض أحد أقرباء السلطان الهندي واسمه قيصر خان وهو ساكن بالوقف ويطالبه بأجرة المكان أو الانتقال منه، فيشتكي هذا الرجل إلى الوزير آصف خان الذي يرفع شكواه بدوره إلى الشريف "فراسل الشريف في أمره بل خدمة من عنده حتى أرضاه وأرصد أمر البيوت حتى يحضر جواب سلطان الهند ، والله يصلح الأحوال " (١١٦) .

ومن سمات العلاقة الطيبة التي جمعت الوزير بأهل مكة حضوره في مختلف المجامع المكية فقد دُعي لوصية ملك التجار السيد علاء الدين التي أعلنها بحضور وزير الهند آصف خان والأمراء والأعيان (١١٧) .

وبمثل ذلك التقدير دُعي الوزير آصف خان لحفل الزواج الذي عقده مؤرخ مكة جار الله بن فهد لابنته آسيه على ابن عمها عبد الرحمن وبعد الحفل أرسل والد

العروس إلى الوزير مائدة من مفتخر الطعام قال عنها : " وقدمُت منها مائدة لوزير الهند تعظيماً له ، فأعجبه " (١١٨) .

وكما شارك الوزير أهل مكة فرحتهم فإنهم شاركوه احتفالاته ففي شعبان سنة ٩٤٣هـ/ يناير ١٥٣٧م حيث أقام الوزير حفل ختان لولديه وعمل " وليمة حسنة دعا فيها قضاة مكة من المتولين والمفصولين وأرباب الوظائف والمشائخ والعلماء والفضلاء من العرب والعجم ، وباشر فيها أكابر جماعته لخدمته وهو حاضر "(١١٩).

وكذلك عندما وصلت الأخبار في ذي القعدة من نفس العام بوفاة سلطان الهند بهادر شاه هرع أهل مكة لتقديم العزاء للوزير الهندي صديقهم ولمشاركته أحزانه (١٢٠) .

تواصلت عادة سلام أهل مكة على آصف خان حين قدومه من سفر ، فقد جاؤوا للسلام عليه حين عودته من رحلة زار فيها بلاد الدولة العثمانية أوردها لنا الجزيري وقال : إن آصف خان عاد لمكة مع ركب الحاج الشامي في سنة ٩٤٤هـ/١٥٣٨م ، وهرع أهل مكة للسلام على الوزير " (١٢١) . بينما عرض لنا مؤرخنا جار الله أخبار هذه الرحلة ووصف لنا خروج أهل مكة من أرباب الوظائف إلى الحجون ومعهم أصحاب الوزير من الهنود وأنه ترجّل لهم حين استقبلهم ودخل مكة ماشياً . ولاقاه جار الله في المعلاة " فأظهر المحبة والمودة على عادته " وفي ذلك إشارة إلى العلاقة الطيبة التي ربطته بجار الله بن فهد . ثم طوّفَ الوزير وسعاه إمام الشافعية أبو اليمن ابن الإمام أبي السعادات الطبري المكي " وهرع أهل مكة للسلام على الوزير والقادمين من الشام " (١٢٢) .

مبرات الوزير آصف خان في مكة المكرمة :

في الفترة الزمنية التي عاشها وزير الدولة الكجراتية آصف خان بمكة

المكرمة أنجز مبرات وأعمال خلّدت اسمه فأصبح في مصاف المحسنين من الخلفاء والملوك لسخائه وكرمه ومبراته على أهل مكة : الخاصة منهم والعامة ، العلماء منهم والمتعلمون ، فاستحقّ ما وصفه به العيدروسي في قوله : " حتى قال بعض العلماء : قد أذْكَرَنا ذلك ما يُحكى عن الخلفاء والبرامكة وأبان لنا حقيقة ما في التواريخ عنهم حتى قيل إنه أنفق بمكة في نحو سنة واحدة مائة وخمسين صندوقاً ذهباً . حتى ألبس أهل مكة نساءهم وخدمهم حلي الذهب الذي لم يعهدوا مثله ، وتوسّعوا في الملابس والمعاش بما لم يعرفوه من قبل ذلك ، فجزاه الله خير الجزاء " [(١٢٣)] .

وإن كان العيدروسي قد أجمل لنا بهذه العبارات درجة كرم آصف خان وكثرة عطاياه بمكة فلقد عددها لنا معاصره فيها مؤرخها جار الله بن فهد . والناظر في هذه المبرات والعطايا من الوزير الهندي يمكن له أن يقسمها إلى قسمين : خاصة وعامة .

فمن مبراته الخاصة :

- ما روى عنه في عام ٩٤٢هـ/١٥٣٦م من أنه زار الشريف أبا نمي أمير مكة للسلام عليه ، وبعد خروجه من عنده أرسل لصهريْ الشريف عطيات " من القماش بقجتين ومرطباناً صينياً لا يُعلم ما فيه ، ونقداً من الذهب يُقال خمسمائة سلطاني "[(١٢٤)] .

وفي صباح اليوم التالي كانت مبرة آصف خان للأمير أبي نمي الذي زار الوزير في منزله وسلم عليه، فلما خرج من عنده أرسل له الوزير مع أحد المقربين عنده وهو السيد أحمد الإيجي مبلغاً مالياً قيل إنه ألف سلطاني بأربعة آلاف أشرفي[(١٢٥)] .

وتكررت هذه المبرات الخاصة للشريف في شهر صفر من عام ٩٤٦هـ/ يونيو ١٥٣٩م بعد أن خرج آصف خان بعائلة السلطان بهادر شاه وعياله وجهزهم في ميناء جدة لترتيبات عودتهم إلى الهند فخلع على نائب جدة خلعتين مع هدايا . كما بعث لأمير مكة أبي نمي – وقد كان مع جماعته في جهة اليمن – وأرسل لهم مع إمام الحنيفة السيد محمد البخاري نقداً وقماشاً ، علّق عليها جار الله بقوله : " لا أعلم كميتها " (١٢٦) .

- وصُرفت مبرات الوزير الخاصة إلى العلماء من أهل مكة تقديراً وشكراً لهم على مشاركتهم في المجالس العلمية التي كان يعقدها في بيته أو في بعض المدارس استجابة له . فعند انتهاء الفقيه أحمد بن حجر الهيتمي الشافعي من قراءة كتاب الشفاء في بيت الوزير آصف خان أرسل له كسوة صوف وشاشيْن وبيرم وقطعة ذهب ، قيل : إن وزنها خمسة وعشرون مثقالاً مع عود ووعائين من ماء الورد (١٢٧) .

- وكافأ الوزيرُ جارَ الله بن فهد عندما ختم قراءة صحيح البخاري لسلطان الهند بهادر شاه بالمسجد الحرام في حضرة جماعة من المشائخ والفضلاء بأن أرسل إليه خمسة وعشرين مثقالاً ذهباً وأَشْرَكَ معه فيها أخاه ، لذا نرى جار الله يستقلّ هذا المبلغ ويعلق على ذلك بأن هذا الأمر وقع بتدخل محاضر السوء (١٢٨) .

- وفي ليلة خامس عشر من شهر رمضان ٩٤٢هـ/ مارس ١٥٣٦م " خَتَم في مقام الحنفي الجمالي أبو حامد ابن الإمام شهاب الدين أحمد البخاري بعناية أخيه الجمالي محمد وصلى معه وزير الهند آصف خان وغيره من الأعيان ، وأنعم عليه بعد الختم آصف خان ، تقبل الله ذلك منه " (١٢٩) .

مبرات آصف خان العامة :

أما المبرات العامة فهي التي تشمل العديد من أهل مكة على اختلاف طبقاتهم ، ومنها :

- بدأ الوزير آصف خان مبراته العامة في نفس الشهر الذي دخل فيه مكة المكرمة ، أي في جمادى الأولى عام ٩٤٢هـ/ نوفمبر ١٥٣٥م . فبعد أن استقرت أحواله وسكنه قدِم إليه أعيان مكة من أصحاب الوظائف للسلام عليه وقدموا له الهدايا من العسل والسكر والأغنام وغيرها . فما كان منه إلا أن بادلهم بمثل ما قدموه له وأرسل لهم الأموال النقدية والهبات (١٣٠) .

- وبعدها بشهر ، أي في أواخر جمادى الثاني ، فرّق الوزير آصف خان على أرباب الوظائف من القضاة والأئمة وبني شيبة والمؤذنين والفراشين مقداراً من الذهب والشاشات وُزعت عليهم (١٣١) .

- وفي شهر شعبان من نفس العام قدم مبرة أخرى فرّقها على أهالي مكة من أرباب الشعائر والقضاة والأئمة والمؤذنين والفراشين وغيرهم . علق عليها ابن فهد ووصفها بأنها أكبر من الأولى . فقد صرف لكل نفر منهم عشرة أشرفية كل أشرفي أربعة وشاشين قندهاري عال ، وكان جار الله بن فهد منهم كما كان منهم بعض مشائخ العجم كالشيخ إسماعيل الشرواني الذي خصه بمبلغ مائة أشرفي ذهباً(١٣٢) .

- وفي ذي القعدة من نفس العام ٩٤٢هـ/ مايو ١٥٣٦م وصلت للوزير آصف خان عطايا وهبات من السلطان العثماني مع ركب الحاج المصري فخرج بها ووعد أهل مكة بتوزيع مبرات لهم قبل طلوعهم إلى عرفات (١٣٣) لأداء فريضة الحج فيكرم أهلَ مكة ممَّا وصل إليه من إكرام السلطان .

- وعندما وصلت المبرة الهندية وعطايا سلطان الهند المظفر بهادر شاه في المحرم من عام ٩٤٣هـ/ يونيو ١٥٣٦م اجتمع وزيره آصف خان بمكة مع أميرها أبي نمي بن بركات لصرف هذه العطايا والهبات . فصرف ثلثها لأمير مكة من الأنعام والهدايا والتحف من أصل خمسة وثلاثين ألف أشرفي ذهباً ، وقد كان مجموعها مائة وستون ألفاً وزيادة . ووزعت على قوائم تجمع أسماء أصحاب الوظائف والقضاة ، وسُلمت بإيصالات على مستحقيها (١٣٤) .

وبعد توزيع هذه المبرة المظفرية أقام الوزير آصف خان في مستهل شهر صفر وليمة كبيرة دعى إليها القضاة والمشائخ وأهل الفضل من العرب والعجم في المدرسة الباسطية قدم لهم فيها أنواع الأطعمة من الأرز ولحم الضأن والدجاج والحلوى (١٣٥) .

- ولم يترك الوزير آصف خان أي مناسبة دينية أو اجتماعية إلاّ استغلها وأغدق المبرات والأطعمة على أهالي مكة . فبعد أن أتم جار الله بن فهد قراءة كتاب شمائل الرسول ﷺ للإمام الترمذي في المدرسة الباسطية قدم للحاضرين طعاماً وحلوى فأكلوا وانصرفوا (١٣٦) .

- ويذكر لنا ابن فهد أن مبرة إطعام أهالي مكة كانت من عادات الوزير آصف خان في أول كل شهر ، فهو بعد ختم قراءة كتاب شمائل النبي ﷺ يمد للحاضرين سماطاً من الأطعمة والحلوى على جاري عادته ، ثم يقسم على بعض الأكابر ممن حضر مجلسه بعض قماش ويرسل إلى جار الله ببقجة فيها : ثوب صوف وشاشان وبيرمان تساوي أربعين أشرفياً (١٣٧) .

ومن الطبيعي أن يظهر كرم الوزير آصف خان في المناسبات الاجتماعية التي تخص عائلته . ففي ٧ شعبان سنة ٩٤٣هـ/٢٠ يناير ١٥٣٧م احتفل آصف خان

بختان ولديه فعمل وليمة دعا فيها جمعاً كبيراً من قضاة مكة المتولين والمعزولين وأرباب الوظائف والمشائخ والعلماء والفضلاء من العرب والعجم ، وقدم لهم أطعمة كثيرة وحلوى وسكراً مذاباً وماء ورد وبخوراً وتولى أمر التخديم والضيافة على الحاضرين جماعة من أكابرُ خاصته وجماعته بحضوره وإشرافه فابتهج الحاضرون في تلك الليلة (١٣٨) .

- وفي مناسبة أخرى سعيدة عبّر آصف خان عن فرحته بالأخبار التي وصلته من الهند بانتصار سلطانها بهادر شاه على الإفرنج ، فأمر بشراء جميع ما في الأسواق وما في المسعى من المأكولات والحلوى بمبلغ كبير - قيل نحو سبعمائة أشرفي - وفرقها جميعها على من حضر مجلسه في تلك اللحظة (١٣٩) .

- وفي شهر رمضان اهتم آصف خان بتعيين قُراء لختم القرآن الكريم وذلك لعام ٩٤٣هـ/ فبراير ١٥٣٧م من القضاة المتولين والمفصولين وغيرهم من أرباب الوظائف ثم قدّم لهم الأعطيات التي تتراوح بين خمسة وعشرين مثقالاً إلى خمسة مثاقيل (١٤٠) .

- وتستمر هذه المبرات لأهالي مكة ففي المحرم من سنة ٩٤٥هـ/ يونيو ١٥٣٨م عمل الوزير آصف خان وليمتين في المدرسة الباسطية أول النهار وآخره ، خصّ الأولى بالأروام والعجم ، وخصّ الثانية ببعض العرب من أهل مكة وقضاتها المفصولين منهم والمتولين وغيرهم من المشائخ والفقهاء " فحضروا الطعام وانصرفوا " (١٤١) .

- وفي صفر من نفس العام عمل أيضاً وليمة أخرى في المدرسة الباسطية حضرها قضاة مكة وأعيانها من الفقهاء والفقراء ، وقدّم لهم الحلوى الكثيرة (١٤٢) .

- وفي نفس الشهر أقيمت صلاة الغائب بالمسجد الحرام على سلطان

الهند بهادر شاه ودعى له المؤذن أبو عبد الله الريس على ظلة زمزم " ثم بعد الصلاة حضر القضاة والفقهاء وغيرهم أمام المدرسة الباسطية في الرواق الشمالي من المسجد وقُرئت عدة ربعات ودُعي للسلطان بهادر شاه وللخنكار وصاحب مكة وناظر المسجد الحرام القاضي مصلح الدين الرومي ، وبُخِّر الحاضرون بالعود الهندي وقُسّم عليهم الريحان والماورد " وبعد أن سلّم الحاضرون على الوزير آصف خان قسم مبالغ مالية على جماعة : منهم نحو الثلاثين أشرفياً وللخطيب أربعين وللرئيس عشرين ولشيخ الفراشين أربعين وللفراشين عشرين وغيرهم (١٤٣) . وقيل : إن السبب في هذه المبرة طلب زوجة السلطان بهادر شاه من وزيرها ذلك .

- وتوالت مبرات آصف خان لأهالي مكة المكرمة ، ففي ربيع الأول من نفس العام ٩٤٥هـ/ أغسطس ١٥٣٨م أقام وليمة كبيرة وصفها جار الله بالعظيمة في بركة ماجن (١٤٤) أسفل مكة لأصحابه من العرب والعجم وقدم لهم فيها الأطعمة الفاخرة والفواكه الكثيرة ودعى إليها أصحاب الوظائف وأكرمهم بذوقه وحسن ضيافته (١٤٥) .

- وفي مستهل ربيع الثاني أقام وليمة ثانية في نفس المكان لبعض الأتراك العثمانيين ، وغيرهم من الفقهاء والعلماء الأعلام ، منهم قاضي العسكر وقاضي مكة الأفندي وقاضي المالكية وغيرهم من العرب والعجم " وقدم لهم كثيراً من الأطعمة المفتخرة والحلويات والفاكهة " وأظهر لهم حفاوة الاستقبال والتكريم، وكان جار الله مؤرخنا حاضراً فدعى له وأثنى عليه (١٤٦) .

- يلاحظ بقاء الوزير آصف خان بمكة واستمرار مبراته لأهلها حتى بعد سفر عائلة السلطان بهادر شاه وعودتهم إلى الهند . ففي جمادى الأولى من سنة ٩٤٦هـ/ سبتمبر ١٥٣٩م يقيم آصف خان مجلس ذكر في حوش دار العجلة بجوار المدرسة الباسطية بحضور القاضيين الشافعي والمالكي وغيرهما من الفقهاء

والتجار والفقراء ، فيقدم لهم الحلوى والفتُوت والبخور والماورد والعود ويُنعم على القُراء بخُلع وأموال (١٤٧) .

- وفي صباح اليوم التالي يقدم سماطاً فيه من الأطعمة الفاخرة أيضاً بحضور القضاة والفقهاء والتجار والأولاد الصغار الذين يشملهم كرمه ومبراته فيقدم لكل واحد أشرفي فضة وجملة ذلك أربعين أشرفياً ، ويخلع على الفقيه محمد ابن المقرئ خلعة صوف عودي ومبلغ خمسين سلطانياً . وابتهج الحاضرون ودعوا للوزير على مكارم أخلاقه " زاده الله أفضالاً ومهابة وإجلالاً " (١٤٨) .

ويعرض علينا جار الله بعض التفاصيل عن المبرات ، من بين ذلك أنه نقل لنا نص الإيصالات التي تصل أحياناً مع المبرات المرسلة من السلطان بهادر شاه ويتولى الوزير آصف خان توزيعها على أصحابها بأسمائهم بعد أن يختم على كل وصل ويسجل عليه تاريخه ، يقول جار الله : " وصورة الوصل الذي كُتب باسمي هو : الحمد لله . المتعين من مال الخيرات المبرورة المقبولة السلطانية المظفرية البهادر شاهية الملكية الخاقانية الواردة إلى مكة المشرفة – خلد الله ملك المنعم بها ، ونصره نصراً عزيزاً – صحبة نائبه القائم مقامه في جميع أموره ، لسان سلطنته المعظمة مولانا المسند العالي الوزير الأعظم الأعلم ، والخاقان الأكرم الأفخم ، والمشير الصاحب الأكرم ، عضد الدولة مدبر المملكة الإسلامية – أدام الله تعالى عزه وجلاله وعظمته – عن مدة سبعة أعوام متوالية أولها استقبال سنة أربع وثلاثين وتسعمائة (٩٣٤هـ/١٥٢٨م) باسم الشيخ جار الله ابن الشيخ عز الدين بن فهد الهاشمي مبلغ أشرفية : أربعمائة وعشرون ، نصف ذلك مائتان وعشرة ، في كل سنة ستين أشرفيا . صُرف له النصف المذكور عما خصّه بحكم المحاصّة من المبلغ الأصلي المذكور ، بسبب صرف الإخراجات الجاري بها العادة في مثل ذلك . والحمد لله وحده وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وسلم " (١٤٩) .

- وكما شملت مبرات الوزير أهالي مكة ، فقد وصلت أيضاً إلى أهالي المدينة المنورة حيث أرسل آصف خان مع القافلة المتوجهة إلى المدينة المنورة في ربيع الأول عام ٩٤٣هـ/ أغسطس ١٥٣٦م الهبات ، وكانت عبارة عن سبائك من الذهب توزع على أصحاب الصرر والأربطة بها (١٥٠) .

رحلات الوزير آصف خان :

خلال فترة وجود الوزير الهندي بمكة لم تكن له رحلات كثيرة لخارجها وإنما سجلت لنا مصادر ترجمته رحلةً أساسية له إلى الديار العثمانية . خرج إليها بصحبة الركب المصري وعاد بعد عام صحبة الركب الشامي . وفي رحلة الذهاب مرّ بمصر والإسكندرية ثم في رحلة العودة مرّ بالقدس وبلاد الشام .

فبعد انقضاء موسم حج عام ٩٤٣هـ/ مايو ١٥٣٧م خرج آصف خان صحبة قافلة الحجيج المصرية وبصحبته جماعة من أصحابه وأتباعه منهم إمام الحنفية ، وأعدّ عدّته لهذه الرحلة فاستأجر الجمال التي بلغ عددها مائة جمل وحمّلها بالزاد والماء . وخرج أعيان أهل مكة لوداعه (١٥١) . وبعد نحو ثلاثة أشهر خرج من الإسكندرية بعد أن جهّز له نائب الديار المصرية المراكب التي ستنقله إلى بلاد الدولة العثمانية – إلى إسطنبول – (١٥٢) .

وبعد عام واحد وقبيْل موسم حج عام ٩٤٤هـ/ مايو ١٥٣٨م عاد آصف خان مع ركب الحاج الشامي إلى مكة . وكان زار القدس والخليل (١٥٣) . ولم تطل رحلة آصف خان هذه إذ لم تتجاوز العام الواحد . والمهمة التي خرج فيها كانت مهمة سياسية كما نوهنا لذلك في هذه الدراسة .

وأضاف لنا الكناني في مخطوطته " الشكر والبيان " رحلة أخرى قام بها آصف خان إلى المدينة المنورة . وننوه إلى أنه برغم وجود الوزير بمكة لأكثر من

عشر سنوات إلا أن مؤرخنا جار الله لم يذكر زيارته إلى المدينة المنورة . وفي ذلك يقوم تساؤل . فقد جرت العادة لساكني مكة ومجاوريها تعدد زياراتهم لمدينة رسول الله ﷺ والصلاة بمسجدها الحرام .

وجاء تسجيل زيارة آصف خان إلى المدينة في قصيدة مدحه فيها محمد بن محمد الكناني إمام وخطيب المسجد النبوي في كتابه " الشكر والبيان لمدح الوزير آصف خان " ، حيث قال :

من زار بابَك لم تبرح جـــوارحـــه تروي أحاديث ما أوليــتَ من مِنن

فالقلب عن جابـــر والكف عن هبة والعين عن قرة والوجه عن حسن

ياله من وجه أشرقت طيبة بطالع سعده وأينعت أرضها بوابل جوده ومجده

فرضٌ على أهل المدينــــة أن يدعو بطـــول بقائه لهـــــم

فببرّه فيهـــــــم نفى عُدما وبجوده وافتْ لهم نِعَـــم[١٥٤]

مؤلفات الحجازيين في مدح الوزير آصف خان :

إن ما عُرف به الوزير آصف خان في مكة المكرمة من الدين والعلم والخلق الرفيع جعل الناس كلما ذكروه مدحوه ووصفوا مبّراته وأعماله الخيرية تقديراً لجهوده . وبلغ الأمر ببعض كبار العلماء ألفوا كتباً في مدحه وإطراء أوصافه ومواقفه ، وكان ذلك في مكة كما كان في المدينة المنورة . ففي مكة ألَّف في شمائله رجل من كبار علمائها ممن لا يُظن أنه يؤلف في موضوع كهذا ، إنه الشيخ أحمد بن حجر الهيتمي المكي (ت٩٧٤هـ/١٥٦٦م) الذي وضَع كتاباً عنوانه "رياض الرضوان ، في مآثر آصف خان " والذي لم نتمكن من الحصول أو الاطلاع عليه[١٥٥] .

وفي المدينة المنورة ألف إمام مسجدها وخطيبه محمد بن محمد بن صالح الكناني المدني الشافعي رسالتين في مدحه أيضاً . الأولى عنوانها : " اللؤلؤ والمرجان ، والفرائد الحسان ، في مدائح مولانا الوزير الأعظم عز الدين آصف خان " توجد نسختها ضمن مجموع من مكتبة الإسكوريال وهي الرسالة السابعة من مجموعٍ محفوظ بها تحت رقم ١٧٠٨ من ورقة ٧٢أ إلى الورقة ٨٢ب . وهو كتاب اختص بمدح الوزير آصف خان ووصفه بالأوصاف العلمية والأخلاقية النادرة . سلك فيه مؤلفه مسلك الترصيع في اللغة ، وجمع فيه أمداحاً مبالغة وأشعاراً متكلَّفة أحياناً مع سلوكه مسلك السجع واختيار الأوصاف المتلاحقة على طريقة أهل عصره . ويبدو أن الدافع لمؤلف الكتاب ابن صالح الكناني هو طلبُ الإعانة المادية بسبب عزله عن وظيفته وفقره واحتياجه الذي عبّر عنه في الفقرة التالية قائلاً : " لأني في هذه المدة ، من العزل في شدة ، فقصتي قد انقصّت ، وشُهب دموعي قد انتضت ، وذهبي قد ذهب ... ومسكني قد خلا من كل ما يحتاج إليه ساكنوه ... وكتبي قد مزقتها كتائب الإفلاس ، وأفضى بي الحال إلى بيع اللباس ، وها أنا قد تمثلتُ بين يديك - أسبغ الله نعمه عليك - بهذه الورقات " (١٥٦) .

ويظهر أن الوزير استجاب لطلبه وأرسل إليه معونةً مجدية ، فكتب الكناني رسالة ثانية لشكره والاعتراف بفضله ، جعل عنوانها : " الشكر والبيان ، لمدح الوزير الأعظم آصف خان ، عظم الله له الشأن " وهي الرسالة الثامنة ضمن نفس المجموع السابق الذكر تقع في تسع ورقات بداية من ورقة ٨٣أ إلى ورقة ٨٧أ . عبّر فيها عن سعادته باستجابة الوزير لطلبه وإرسال المعونات إليه . سلك فيها أيضاً مسلك السجع والتكلف في عبارات المديح مثل أن يصفه بقوله : " وكان مولانا وسيدنا المقام العالي المولوي ، العالمي ، الخاشعي ، الناسكي ، العابدي ، الزاهدي، الهُمامي ، القوامي ، النظامي ، المحسني ، المتصدقي ، صاحب المآثر

الجليلة ، والمبرات الجزيلة ، والصدقات العامة للخاصة والعامة ، المستغني بأوصافه الحسان ، عن ترجمان البنان والبيان ، مولانا المسند الأعلى عبد العزيز آصف خان .. " [١٥٧] وفي عبارات الشكر يقترن الترحيب بوجود الوزير بالمدينة المنورة مما يؤكد زيارته لها ، ثم يُضيف المادح : " أعيذه برب الفلق من الفسق ، وليل المكاره وما وسق ، قد غمرتني آلاؤُه ، وعمتني نعماؤه ، وجادتني سحب سخائه ، وأغرقتني سيولة عطائه ، وأعجزني القيام بواجب شكره " [١٥٨] . ولعل السبب لهذين المؤلفين هو نيل الحسنيين من الوزير الأولى كونه عالماً ويستحق الثناء على علمه ، والثانية إسباغ النعم على المادح .

كما امتدح المؤرخ المكي جار الله الوزير الهندي آصف خان ، وهو الذي تتبع خطوات حياته بمكة وذكر أحداثها بالتفصيل . وفي كل مرة كان يختتم الحديث عنه بعبارات دالة على فضله ومكانته ومحبة جار الله له فنراه تارة يقول : " آصف خان عظم الله له الشان " [١٥٩] وعندما يُعلق على توزيع آصف خان للمبرات على أهالي مكة يختم بقوله : " فالله يعوضه خيراً " [١٦٠] وأحياناً يقول : " تقبل الله ذلك منه " [١٦١] وفي تعليق آخر يقول : " جزاه الله خيراً وكثّر من أمثاله " [١٦٢] . ويتحدث عن أحواله الشخصية فيقول : " الوزير الأعظم عز الدين عبد العزيز آصف خان – شيّد الله له الأركان – " [١٦٣] ، ويقول عنه أيضاً : " بلّغه الله مناه " [١٦٤] ، وعندما يتحدث عن خروج آصف خان مع ركب الحاج المصري إلى مصر يقول : " كتب الله سلامته ووجه وجهه ورده سالماً غانماً " [١٦٥] . ويتحدث عن نيته في السفر لتركيا فيدعو له قائلاً : " وتوجه للسفر لمواجهة الخنكار في بلاد الروم ، بلغه الله ما يروم " [١٦٦] .

ويعود لكلمات الشكر على مبرات الوزير لأهل مكة فيقول : " جوزي خيراً وعوضه الله الخير وأخلفه خيراً منه " [١٦٧] وعلى المبرات وحُسن الكرم من الوزير

يقول جار الله : " وحضرت ذلك ، ورأيت منه أحسن المسالك ، زاده الله من الخيرات " (١٦٨) وتارة أخرى يدعو له بالنصر فيقول : " عظم الله له الشان ، وبلغه من أعدائه الخذلان ، بجاه النبي محمد سيد ولد عدنان " (١٦٩) وفي آخر ذكر لمبرات آصف خان بمكة التي يُوردها جار الله فيقول : " وابتهج الحاضرون بذلك والسامعون وعُد ذلك من محاسن الوزير وعظم رئاسته ، ومكارم أخلاقه وجلالته ، زاده الله أفضالاً ، ومهابة وإجلالاً " (١٧٠) . وفي نهاية خدمات الوزير آصف خان لعائلة السلطان بهادر شاه وبعد أن أعادهم إلى بلادهم في مستهل ربيع الأول من عام ٩٤٦هـ/ يوليو ١٥٣٩م علق جار الله على ذلك بقوله : " فكان سفرهم من سعده ودرايته ، فالله تعالى يسلمه مع جماعته " (١٧١) .

تأثير خبر وفاة آصف خان على المكيين ورثاء بعضهم له :

يبدو أن أهل مكة قد تأثروا كثيراً بخبر وفاة الوزير آصف خان ، كيف لا وللرجل ما لَه من علاقات وأفضال عليهم ، وهو ما عبّر عنه العيدروسي في كتابه بقوله : " ولما بلغ أهل مكة خبر مصابه حزنوا جداً لما كان ينالهم من الإحسان بسببه . ورثاه الشيخ العلامة عبد العزيز الزمزمي المكي (١٧٢) بهذه القصيدة العظيمة جاء فيها :

أي القلوب لهذا الحادث الجلل　　أطـواده الشُم لم تُنسف ولم تُـزل

وأي نازلـة في الهند قـد نزلت　　بلفْحها كل حِبْر في الحجـاز صُلي

أعظم بنازلـة في الكون طار بها　　براً وبحراً مسير السفن والإبل " (١٧٣)

وأورد العيدروسي أبيات هذه القصيدة التي بلغت ٨٧ بيتاً من الشعر البليغ الحسن فيه مدح الوزير وبيان أفضاله السابقة على أهل الحجاز ننقل منها قوله :

يلومني فيـك أقوام ولو علموا　　عذري لما أكثروا لومي ولا عذلي

محبب كل من يولي الجميل وقد أوليتني جملا منهـا على جمل

إن ساء مصرعه أهل الحجاز فكم قد سرهم بالعطايا الغُر والنُجل (١٧٤)

الخاتمـــــة

هذه الدراسة من نوع الدراسات الخاصة بالشخصيات العلمية وتراجمهم ولاسيما أولئك الذين كان لهم الأثر الفعال في مجتمعاتهم . تناولت شخصية الوزير الهندي آصف خان وزير الدولة الكجراتية . الذي كان له الأثر الكبير ليس فقط على مجتمعه الهندي لكونه تولى المناصب العليا فيه وإنما لأثره الكبير في المجتمع المكي الذي عاش فيه ولو لفترة زمنية محدودة .

لم يسبق للدراسات قبلها أن تُلْقي الضوء على هذه الشخصية ، فبالتالي قدَّمتُ التعريف بها من خلال أخبار تواجدها بمكة المكرمة . فالوزير الهندي آصف خان والمكلف من قبل سلطانه بهادر شاه ملك كجرات بحراسة عائلته وأمواله فرافقهم إلى أعظم الأماكن قداسةً وأماناً ، إلى بلاد الحرم المكي الشريف مكة المعظمة ، فوفَّر لهم المسكن والأمان ، وكوّن العلاقات الطيبة التي تربطه بأهل البلاد التي جاور فيها فحظيَ بالتكريم والاحترام لما امتازت به شخصيته مِن تديّن وثقافة ورقي . واشتهر عنه الكرم والعطاء فكثرت مبراته لأهل مكة الخاصة منهم والعامة ، حتى قيل إنه ألبس أهل مكة حلي الذهب التي لم يلبسوا مثلها من قبل ، واهتم بالعلم والعلماء فالتقى بهم وأقام الجلسات الدينية والعلمية لقراءة القرآن الكريم ودراسة كتب التفسير والفقه في المسجد الحرام وفي داره وفي المدرسة الكجراتية المظفرية ، والتقى في مكة بكبار العلماء ، وإلى ذلك أشار الجزيري في كتابه الدرر الفرائد بأنه صاحَبَ الوزير آصف خان وله به لقاءات في مكة ، كما

التقى بعالم مكة أحمد بن حجر الهيتمي المكي والمصري الأصل ودعاه لقراءة كتاب الشفاء للقاضي عياض في بيته كما اتصل بالكثير من غيرهم .

ورغم أن فترة وجود الوزير بمكة لم تكن بالمدة الطويلة إلا أن أعماله خلدت وجوده واسمه . فلقد قدم إلى مكة في سنة ٩٤٢هـ/١٥٣٥م بعائلة السلطان بهادر شاه وبعد عام واحد كانت وفاة السلطان في الهند ، واستمرت إقامة عائلته بمكة إلى عام ٩٤٦هـ/١٥٣٩م أي قرابة الأربع سنوات . إلا أن الوزير آصف خان لم يغادر معهم بل بقى لمدة تسع سنوات بعد سفرهم إلى أن عاد للهند في عام ٩٥٥هـ/١٥٤٨م حين طلبه السلطان محمود ليتولى له الوزارة بدولته بعد أن استقرت له أحوال البلاد . وكانت وفاة آصف خان عام ٩٦١هـ/١٥٥٤م .

ولا نعرف السبب في بقائه بمكة بعد إنهاء مهمته وهي مرافقة عائلة السلطان ، فقد تكون تلك العلاقة التي ربطته بأهلها هي السبب في عدم مغادرته .

وتوصلت الدراسة إلى التعريف بنوعية علاقة الوزير الهندي بأمير مكة المكرمة الشريف أبي نمي بن بركات الحسني الذي تولى من عام ٩١٨هـ/١٥١٢م إلى عام ٩٩٢هـ/١٥٨٤م ، والعلاقة بالسلطان العثماني آنذاك سليمان خان المتولى من عام ٩٢٦هـ/١٥٢٠م إلى عام ٩٧٤هـ/١٥٦٦م اللذين كان معاصراً لهما ، تلك العلاقات التي اتسمت بالمحبة والاحترام والتقدير .

ويعود الفضل الكبير في هذه الدراسة إلى مؤرخ مكة جار الله بن فهد في كتابه نيل المنى الذي اختصّ بإيراد أغلب أخبار الوزير آصف خان . ولولا ما اجتمع فيه من إفاداته الكثيرة عن شخصية هذا الرجل ما تمكنّا من القيام بهذه الدراسة.

الهوامش والتعليقات

(١) النهروالي : البرق اليماني ص١٢ .

(٢) النمر : تاريخ الإسلام في الهند ص١٦١ .

(٣) الحسني : الهند في العهد الإسلامي ص٢٤١ ؛ لمياء شافعي : علاقة مكة المكرمة بالدولة الكجراتية الهندية ص١٦٠-١٦٧ .

(٤) النهروالي : البرق اليماني ص١٢ .

(٥) النهروالي : البرق اليماني ص١٣ ؛ النمر : تاريخ الإسلام في الهند ص١٥٩ .
أما عن الأوقاف التي أوقفها على المدرسة فقد ذكرتها في بحثي الذي نشرته مجلة كلية الدراسات الإنسانية بجامعة الأزهر ، العدد ١٩ سنة ٢٠٠١م ، بعنوان : علاقة مكة المكرمة بالدولة الكجراتية الهندية ص١٦٢-١٦٣ .

(٦) العيدروسي : النور السافر ص١٩٢ .

(٧) العيدروسي : النور السافر ص٢٤٣ .

(٨) جار الله : نيل المنى ص٦٠٢-٦٠٣ .

(٩) العيدروسي : النور السافر ص٢٤٢-٢٤٣ .

(١٠) جار الله بن فهد : جار الله محمد تقي الدين بن العز عبد العزيز بن فهد المكي الهاشمي الشافعي (ت٩٥٤هـ/١٥٤٧م) من أسرة علمية ذات نسب ، ولد بمكة وتلقى العلم على والده وكبار العلماء بها ، ألف الكثير من الكتب والرسائل أغلبها في التاريخ والتراجم من أشهرها كتابه نيل المنى بذيل بلوغ القرى . انظر ترجمته في مقدمة كتاب نيل المنى ، تحقيق : محمد الحبيب الهيلة ص٥-١٥ .

(١١) فهاهو الجزيري ينقل لنا بعضاً من أخبار الوزير ومصدر معلوماته فيها صديقه مؤرخ مكة جار الله ، وبما أن الجزيري كان حياً سنة ٩٧٦هـ/١٥٦٨م فقد عاصر الوزير الهندي . لذا نراه يقول عنه : " وكان صاحبنا ولنا به اجتماعات لما كان مقيماً بمكة " . انظر الدرر الفرائد ٢ : ٩٣١ .
نشير إلى أننا في دراستنا هذه اعتمدنا على طبعتين من كتاب الجزيري وكلتا الطبعتين غير مفهرسة . فعندما يرد رقم الصفحة فقط فهي إحالة على الطبعة الأولى وعندما نورد الجزء والصفحة فهي الإحالة على الطبعة الثانية .

(١٢) كذا ورد اسمه عند جار الله في نيل المنى ص٦٠٣ ، ٦٠٩ والجزيري في الدرر الفرائد ٢ : ٨٤٨ والملاحظ أن اسم آصف خان اسم قد سمي به وزير النبي سليمان ﷺ . قيل أن اسمه آصف بن برخياء ، وكان يعلم الاسم الأعظم . انظر ابن كثير : تفسير ابن كثير ٣ : ٣٧٦ .

(١٣) العيدروسي : النور السافر ٢٤٢-٢٤٣ . ولم نجد في المصادر ذكراً لتاريخ مولده إلا ما جاء عند العيدروسي بأنه ولد سنة سبع أو تسع وتسعمائة .

(١٤) جار الله : نيل المنى ص٦٠٢-٦٠٣ .

(١٥) الجزيري : الدرر الفرائد ٢ : ٨٤٨ .

(١٦) العيدروسي : النور السافر ص٢٤٣ ؛ الجزيري : الدرر الفرائد ٢ : ٨٤٨ .

(١٧) جار الله : نيل المنى ص٦٠٢ .

(١٨) جار الله : نيل المنى ص٦٠٣ ؛ الجزيري : الدرر الفرائد ٢ : ٨٤٨ .

(١٩) جار الله : نيل المنى ص٦٠٢-٦٠٤ .

(٢٠) خليل الكيلاني : هو موظف للدولة الكجراتية مُكلف بأمانة المبرة الهندية ، وردت أخباره متفرقة في كتاب نيل المنى ، وتوفي بمكة سنة ٩٤٤هـ/١٥٣٨م . انظر فهرسة كتاب نيل المنى لجار الله بن فهد ، ص٨٣٠ .

(٢١) جار الله : نيل المنى ص٦٢٥ .

(٢٢) جار الله : نيل المنى ص٦٥٢ .

(٢٣) جار الله : نيل المنى ص٧٨٥ .

(٢٤) جار الله : نيل المنى ص٧٩١ .

(٢٥) هي مدرسة تقع على باب العجلة أنشأها الزيني عبد الباسط بن خليل الدمشقي ناظر الجيش وهي مشرفة على المسجد الحرام وبها خلاوٍ للفقراء . ذكرها النهروالي في كتابه الإعلام ص٢١٧-٢١٨ .

(٢٦) جار الله : نيل المنى ص٨٠٠-٨٠١ .

(٢٧) انظر : العيدروسي : النور السافر ص٢٤٢-٢٤٣ .

(٢٨) الجزيري : الدرر الفرائد ص٣٩٩ ؛ العيدروسي : النور السافر ص٢٤٣ ؛ ابن العماد : شذرات الذهب ٨ : ٣٢٨ .

(٢٩) جار الله : نيل المنى ص٦٠٤ .

(٣٠) جار الله : نيل المنى ص٦٠٤-٦٠٥ ؛ الجزيري : الدرر الفرائد ٢ : ٨٤٨-٨٤٩ .

(٣١) باب العجلة : هو باب كان يسمى بباب دار العجلة وهو من الأبواب التي عمرها أبو جعفر المنصور . انظر الأزرقي : أخبار مكة ٢ : ٧٧ ، ٩٣ .

(٣٢) جار الله : نيل المنى ص٦٢٥-٦٢٦ ، ٦٢٧ ؛ وعن دار آصف خان انظر موسوعة مكة المكرمة والمدينة المنورة ١ : ٨٢-٨٣ .

(٣٣) جار الله : نيل المنى ص٦٦١ .

(٣٤) الجزيري : الدرر الفرائد ص٣٩٩ .

(٣٥) جار الله : نيل المنى ص٦٢٥ ، ٦٤٥-٦٤٦ .

(٣٦) جار الله : نيل المنى ص٦٥٢ .

(٣٧) الجزيري : الدرر الفرائد ٢ : ٩٣١-٩٣٢ .

(٣٨) العيدروسي : النور السافر ص٢٤٢ ، ٢٥٢ ؛ ابن العماد : شذرات الذهب ٨ : ٣٢٨ .

(٣٩) الجزيري : الدرر الفرائد ص٣٩٩ .

(٤٠) الحسني : الهند في العهد الإسلامي ص٢٤٠ .

(٤١) جار الله : نيل المنى ص٦٠٥ .

(٤٢) جار الله : نيل المنى ص٦٦٦ .

(٤٣) العيدروسي : النور السافر ص٢٤٣ .

(٤٤) العيدروسي : النور السافر ص٢٤٣ .

(٤٥) الحسني : الهند في العهد الإسلامي ص٤٤٠-٤٤١ ؛ النمر : تاريخ الإسلام في الهند ص١٥٥.

(٤٦) العيدروسي : النور السافر ص٢٤٣ .

(٤٧) انظر مثلاً جار الله : نيل المنى ، ص٦٤١ ، ٦٤٨ ، ٨٠٠ .

(٤٨) انظر الورقة ٨٤ أ .

(٤٩) الكناني : اللؤلؤ والمرجان ، ورقة ٨٤أ .

(٥٠) العيدروسي : النور السافر ص٢٤٣ .

(٥١) جار الله : نيل المنى ص٦٠٤ .

(٥٢) تُعتبر مكتبة بني فهد في مكة من أهم المكتبات العلمية في مكة حيث أن عدد العلماء من بني فهد كانوا كثيراً ومؤلفاتهم عديدة وقد تحدث عنها المؤرخون وذكروا كثرة كتبها وتنوع علومها ، كما زارها كبار العلماء المعاصرين لها مثل السخاوي والسيوطي واستفادوا مما احتوت عليه من نوادر الكتب حتى قال عنها أحد المؤلفين وهو عمر الشماع :

وقفت على كتب لشيخنا بها ذكره بين البرية قد فشا

فألفيتها ألفاً وألفاً وثالثاً وذلك فضل الله يؤتيه من يشا

ولقد كتب د. محمد الحبيب الهيلة عن مكتبة بني فهد هذه وأهميتها وبعض محتوياتها في كتابه : التاريخ والمؤرخون بمكة ص١٠٣-١٠٥ .

(٥٣) عملة ذهبية منسوبة للأشرف برسباي الذي حكم مصر بين سنتي ٨٢٥هـ/١٤٢٢م وسنة ٨٤١هـ/١٤٣٥م .

(٥٤) جار الله : نيل المنى ص٦٥٦-٦٥٧ .

(٥٥) جار الله : نيل المنى ص٦٧٣ .

(٥٦) جار الله : نيل المنى ص٦٠٧ .

(٥٧) جار الله : نيل المنى ص٦٠٤ .

(٥٨) الربعة هي قراءة القرآن كاملاً يُقسم أجزاءه بين العديد من القراء .

(٥٩) جار الله : نيل المنى ص٦٤٨-٦٤٩ .

(٦٠) ونسنك : المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ١ : ٢٠٢ .

(٦١) البقجة : وتلفظ بالعامية بقشة ، وهي قطعة من القماش تُجمع فيها الأغراض من ثياب وغيرها.

(٦٢) البيرم : قماش من القطن كثيراً ما يستورد من الهند . نيل المنى ص٦٥١ هامش ٢ .

(٦٣) جار الله : نيل المنى ص٦٤٩-٦٥١ .

(٦٤) يذكر جار الله بن فهد أن سبب مرض الشيخ ابن حجر هو كثرة اجتهاده في إلقاء الدروس ليلاً ونهاراً في المسجد الحرام ومنزل الوزير ، ص٦٦٨ .

(٦٥) انظر جار الله : نيل المنى ص ٦٦٤ ، ٦٦٨-٦٦٩ ؛ لمياء شافعي : ابن حجر الهيتمي المكي ص١١٤ .

(٦٦) جار الله : نيل المنى ص٦٦٩ .

(٦٧) هو أبو نمي محمد بن بركات الحسني تولى الحكم مع والده منذ سنة ٩١٨هـ/١٥١٢م وبعد وفاة والده استقلّ بالحكم إلى وفاته سنة ٩٩٢هـ/١٥٨٤م . جارشلي : أشراف مكة المكرمة ص١٣٨ ؛ عبد الغني : تاريخ أمراء مكة المكرمة ٦٩٩-٧٠٣ .

(٦٨) جار الله : نيل المنى ص٦٢٦ .

(٦٩) جار الله : نيل المنى ص٦٢٧ .

(٧٠) جار الله : نيل المنى ص٦٢٧ .

(٧١) جار الله : نيل المنى ص٦٦٣ .

(٧٢) جار الله : نيل المنى ص٦٤١-٦٤٣ .

(٧٣) حَلْي : مدينة ساحلية جنوب مكة تبعد عنها بـ ٤٣٠كيلو . ياقوت : معجم البلدان ٢ : ٢٩٧ .

(٧٤) جار الله : نيل المنى ص٦٧٢ .

(٧٥) الخنكار : لفظ متداول هو لقبٌ من ألقاب أكبر الملوك والسلاطين في العهد العثماني ، أول من حمله من سلاطين الدولة العثمانية مراد الأول سنة ٧٩١هـ . انظر النهروالي : الإعلام ص٤١٣.

(٧٦) هو الخليفة العثماني سليمان بن سليم بن بايزيد عاشر ملوك آل عثمان . استمرت خلافته من سنة ٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م إلى سنة ٩٧٤هـ/١٥٦٦م . اتصف بالعدل وحسن الخلق ، وله أعمال بر كثيرة بالحرمين الشريفين منها مواظبته على إرسال الصرة لتفرق هناك ، كما له توسعة بالمسجد النبوي وعمارة عين عرفات . توسعت الأراضي الإسلامية العثمانية في عهده سواء في أوروبا أو بلاد المغرب الإسلامي . انظر ترجمته في : النهرولي : الإعلام ص٢٩٧ ؛ العصامي : سمط النجوم العوالي ٤ : ٧٣-٩٤ ؛ محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ص١٩٨-٢٥٢ ؛ الصلابي : الدولة العثمانية ص٢٢٤-٣٠٢ ؛ إبراهيم حليم : التحفة الحليمية ص١٢٧-١٣٦ .

(٧٧) الكيخيا : وظيفة إدارية سياسية أطلقت في عهد الدولة العثمانية على الوكيل والنائب . انظر السنجاري : منائح الكرم ٥ : ٢٢٣ ، هامش رقم (٧) .

(٧٨) جار الله : نيل المنى ص٦٢٨-٦٢٩ ، وفي هذه العبارة استدلال على ما حدث من خلاف حول الأموال والثروات التي قدم بها آصف خان إلى مكة ووضع السلطان العثماني يده عليها ، وهو ما سنتناوله بالتفصيل في نهاية هذا المبحث.

(٧٩) جار الله : نيل المنى ص٦٣٤-٦٣٥ .

(٨٠) الأمير جانم الحمزاوي : هو جانم بن يوسف بن أركماس السيفي قاني باي الحمزاوي ، الذي تولى نيابة الشام من قبل ، ارتفع شأنه أثناء فترة حكم خاير بك على مصر فصار من أصحاب الحل والعقد بها ، كما أنه لعب دوراً مهماً في السنوات الأولى من الحكم العثماني لمصر حيث اشتغل كضابط اتصال بين السلاطين وحاشية الوالي في مصر . ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ٥ : ٣٥٢ .

(٨١) جار الله : نيل المنى ص٦٦٧-٦٦٨ .

(٨٢) الجزيري : الدرر الفرائد ٢ : ٨٥٢-٨٥٣ .

(٨٣) جار الله : نيل المنى ص٦٧٥ .

(٨٤) الجزيري : الدرر الفرائد ٢ : ٨٥٠ .

(٨٥) جار الله : نيل المنى ص٦٨٥ .

(٨٦) جار الله : نيل المنى ص٧٠٤ .

(٨٧) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ص٢٣٩ .

(٨٨) جار الله : نيل المنى ص٧٣٧ .

(٨٩) جار الله : نيل المنى ص٧٤٧ .

(٩٠) سليمان باشا : هو سليمان باشا الخادم من الأرنواد من مماليك السلطان سليمان ، تولى الوزارة بمصر مدة عشر سنوات ثم عزل عنها ثم أعيد مرة أخرى وتولى تجهيز العسكر الخارج للهند لإنقاذها من البرتغاليين . انظر النهروالي : الإعلام ص٣٠٧-٣٠٨ .

(٩١) جزيرة كمران : تقع في البحر الأحمر قبالة مدينة زبيد ، وهي من الحصون الهامة .

(٩٢) ذكر بعض المؤرخين أن عدد المراكب التي اتجهت إلى الهند سبعون مركباً وأن عدد الجيش وصل إلى عشرين ألف . انظر النهروالي : الإعلام ٣٠٧-٣٠٨ ؛ محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ٢٣٩ .

(٩٣) جار الله : نيل المنى ص٧٤٦-٧٥٠ ؛ الجزيري : الدرر الفرائد ٢ : ٨٦١ .

(٩٤) الجزيري : الدرر الفرائد ٢ : ٨٦٢ .

(٩٥) جار الله : نيل المنى ص٧٦٨-٧٦٩ .

(٩٦) جار الله : نيل المنى ص٧٩٢-٧٩٣ .

(٩٧) هي اسم لمخازن ميناء جدة ، وردت كثيراً في النصوص التاريخية ، انظر مثلاً فهرس الأماكن من كتاب نيل المنى لجار الله بن فهد مادة " فرضة " .

(٩٨) جار الله : نيل المنى ص٦٠٣ ؛ الجزيري : الدرر الفرائد ٢ : ٨٤٨ ؛ لمياء شافعي : علاقة مكة المكرمة بالدولة الكجراتية الهندية ص١٨١-١٨٢ .

(٩٩) جار الله : نيل المنى ص٦٢٨-٦٢٩ .

(١٠٠) الجزيري : الدرر الفرائد ٢ : ٩٣١ .

(١٠١) الجزيري : الدرر الفرائد ٢ : ٨٤٩ .

(١٠٢) جار الله : نيل المنى ص٦٣٥ ؛ والنقل من المحقق الدكتور محمد الحبيب الهيلة بأن هناك زيادات كثيرة على نصوص جار الله بخط قطب الدين النهروالي مما يشير إلى لقاء النهروالي بآصف خان . انظر نفس الصفحة هامش رقم٢-٣-٤.

(١٠٣) جار الله : نيل المنى ص٦٣٤-٦٣٥ .

(١٠٤) عن مقتل السلطان بهادر شاه انظر : جار الله : نيل المنى ص٦٧١ ، ٦٧٣-٦٧٤ ؛ الجزيري : الدرر الفرائد ٢ : ٨٤٩ ؛ النهروالي : الإعلام ص٣٠٧ ؛ العيدروسي : النور السافر ص٢١٠ .

(١٠٥) جار الله : نيل المنى ص٦٧٤-٦٧٥ ؛ ونقل عنه بعض هذا النص الجزيري : الدرر الفرائد ٢ : ٨٤٩ . واللكوك جمع لكك وهو مائة ألف دينار . انظر : نيل المنى لجار الله بن فهد الهامش رقم ١ ص٥٣ .

(١٠٦) جار الله : نيل المنى ص٦٨٤-٦٨٥ ؛ الجزيري : الدرر الفرائد ٢ : ٨٤٩ .

(١٠٧) جار الله : نيل المنى ص٧٠٤ .

(١٠٨) أحمد بن أبي نمي : ابن أمير مكة ، شارك والده في الإمارة بأمر من السلطان العثماني سليمان خان سنة ٩٤٧هـ ، وتوفي في حياة والده الأمير سنة ٩٦١هـ بمكة . انظر ترجمته : عبد الغني : تاريخ أمراء مكة ص٧٠٠ ، ٧٠٢ .

(١٠٩) جار الله : نيل المنى ص٧٠٨ ، ٧١٠-٧١٢ ؛ الجزيري : الدرر الفرائد ٢ : ٨٥١ .

(١١٠) الجزيري : الدرر الفرائد ٢ : ٨٥١ ؛ ونلاحظ الخلل في تاريخ الجزيري المحدد لوصولهم إلى مصر ، لأن الخروج إذا كان في السابع من الشهر فلا يمكن أن يكون الوصول إليها في اليوم الثامن ، أي بعد يوم من المغادرة .

(١١١) جار الله : نيل المنى ص٦٠٥ .

(١١٢) جار الله : نيل المنى ص٦٠٩ .

(١١٣) جار الله : نيل المنى ص٦٠٨ .

(١١٤) جار الله : نيل المنى ص٦٢٧ .

(١١٥) جار الله : نيل المنى ص٦٤٦ .

(١١٦) جار الله : نيل المنى ص٦٥٠-٦٥١ .

(١١٧) جار الله : نيل المنى ص٦٥٧ .

(١١٨) جار الله : نيل المنى ص٦٥٩ .

(١١٩) جار الله : نيل المنى ص٦٦١ .

(١٢٠) جار الله : نيل المنى ص٦٧٤ .

(١٢١) الجزيري : الدرر الفرائد ٢ : ٨٥٦ .

(١٢٢) جار الله : نيل المنى ص٧٣٧ .

(١٢٣) العيدروسي : النور السافر ص٢٤٣ .

(١٢٤) جار الله : نيل المنى ص٦٢٦ .

(١٢٥) جار الله : نيل المنى ص٦٢٧ .

(١٢٦) جار الله : نيل المنى ص٧٩١ .

(١٢٧) جار الله : نيل المنى ص٦٦٨ ؛ لمياء شافعي : ابن حجر الهيتمي ص٨٩ .

(١٢٨) جار الله : نيل المنى ص٦٦٨ ؛ لمياء شافعي : ابن حجر الهيتمي ص٨٩ .

(١٢٩) جار الله : نيل المنى ص٦٢٣ .

(١٣٠) جار الله : نيل المنى ص٦٠٥ .

(١٣١) جار الله : نيل المنى ص٦٠٥ .

(١٣٢) جار الله : نيل المنى ص٦١٣-٦١٤ .

(١٣٣) جار الله : نيل المنى ص٦٢٩ .

(١٣٤) جار الله : نيل المنى ص٦٤١-٦٤٤ ؛ وسنورد نص هذا الإيصال في نهاية المبحث .

(١٣٥) جار الله : نيل المنى ص٦٤٥ .

(١٣٦) جار الله : نيل المنى ص٦٤٩ .

(١٣٧) جار الله : نيل المنى ص٦٥١ .

(١٣٨) جار الله : نيل المنى ص٦٦١ .

(١٣٩) جار الله : نيل المنى ص٦٦٦ .

(١٤٠) جار الله : نيل المنى ص٦٦٩ .

(١٤١) جار الله : نيل المنى ص٧٤٥ .

(١٤٢) جار الله : نيل المنى ص٧٤٥ .

(١٤٣) جار الله : نيل المنى ص٧٤٥-٧٤٦ .
ورغم أن مقتل سلطان الهند بهادر شاه كان في رمضان عام ٩٤٣هـ/١٥٣٦م ووصل خبر الوفاة لمكة في ذي القعدة من نفس العام كما ورد في ص ٦٧٣ من نيل المنى إلا أن صلاة الغائب عليه كانت في أخبار ذي القعدة من عام ٩٤٥هـ/١٥٣٨م ولا نرى لذلك تبريراً .

(١٤٤) كذا وردت تسمية البركة في العديد من مصادر تاريخ مكة ، وتسمى حديثاً بركة ماجد .

(١٤٥) جار الله : نيل المنى ص٧٥٢ .

(١٤٦) جار الله : نيل المنى ص٧٥٣ .

(١٤٧) جار الله : نيل المنى ص٨٠٠ .

(١٤٨) جار الله : نيل المنى ص٨٠١ .

(١٤٩) جار الله : نيل المنى ص٦٤٣ .

(١٥٠) جار الله : نيل المنى ص٦٥٣-٦٥٤ .

(١٥١) جار الله : نيل المنى ص٦٨٤-٦٨٥ ؛ الجزيري : الدرر الفرائد ٢ : ٨٥٠ .

(١٥٢) جار الله : نيل المنى ص٧٠٤ .

(١٥٣) جار الله : نيل المنى ص٧٣٧ ؛ الجزيري : الدرر الفرائد ص٨٥٦ .

(١٥٤) الكناني : الشكر والبيان ، الورقة ٨٤أ – ٨٤ب .

(١٥٥) على الرغم من أنني قمت ببحث مستفيض لدراسة هذه الشخصية وكتبت رسالتي للدكتوراه والتي عنوانها " ابن حجر الهيتمي المكي وجهوده في الكتابة التاريخية " فإني لم أصادف نصاً يذكر هذا الكتاب أو ينسبه إليه ، إلا أن البحث في ما كُتب عن الوزير آصف خان في الانترنت دلّنا على ذكر هذا الكتاب المخطوط دون أن يبين مكان حفظه ويعرض نصه رغم وعد الموقع الذي عنوانه " أهل الحديث ahlalhdith.com " بتمكين الباحثين من نسخته ضمن كتب الأزهرية . وقد بذلتُ الجهد في البحث عنه و لم يتيسر لي لأن الموقع مُعطل ومغلق . ولعلنا نظفر بما يفيدنا عن هذا الكتاب في المستقبل إن شاء الله.

(١٥٦) الكناني : اللؤلؤ والمرجان ، الورقة ٧٩أ-٧٩ب .

(١٥٧) الكناني : الشكر والبيان ، ورقة ٨٤أ .

(١٥٨) الكناني : الشكر والبيان ، ورقة ٨٤ب .

(١٥٩) جار الله : نيل المنى ص٦١٣ ، ٦٥٢ ، ٦٦٦ ، ٧٥٣ ، ٨٠٠ .

(١٦٠) جار الله : نيل المنى ص٦١٤ .

(١٦١) جار الله : نيل المنى ص٦٢٣ .

(١٦٢) جار الله : نيل المنى ص٦٥٧ .

(١٦٣) جار الله : نيل المنى ص٦٦١ .

(١٦٤) جار الله : نيل المنى ص٦٦٩ .

(١٦٥) جار الله : نيل المنى ص٦٨٥ .

(١٦٦) جار الله : نيل المنى ص٧٠٤ .

(١٦٧) جار الله : نيل المنى ص٧٤٥ .

(١٦٨) جار الله : نيل المنى ص٧٥٣ .

(١٦٩) جار الله : نيل المنى ص٨٠٠ .

(١٧٠) جار الله : نيل المنى ص٨٠١ .

(١٧١) جار الله : نيل المنى ص٧٩٣ .

(١٧٢) الشيخ عبد العزيز الزمزي المكي (ت٩٧٦هـ/١٥٦٩م) : من شعراء مكة المكرمة في ذلك العصر ، ولقد كان كثيراً ما يرثي العلماء كرثائه للصلاح ابن ظهيرة المكي . انظر جار الله بن

فهد: نيل المنى ، ص٣٠٤ ؛ ورثائه للشيخ حامد بـــن محمود نزيل مكة . انظر العيدروسي : النور السافر ص٢٥٣-٢٥٥ . وأهم مصادر ترجمة عبد العزيز الزمزمي هي : ابن العمـــاد : شـــذرات الذهب ٨ : ٣٨١ ؛ مرداد : المختصر من نشر النور والزهر ص٢٥٨ ؛ كحالة : معجم المـــؤلفين ٥:٢٥٤.

(١٧٣) العيدروسي : النور السافر ص٢٤٣ .

(١٧٤) العيدروسي : النور السافر ص٢٤٦ .

المصادر والمراجع

- الأزرقي : أبو الوليد محمد بن عبد الله ، أخبار مكة ، وما جاء فيها من الآثار ، تحقيق : رشدي الصالح ملحس ، الطبعة الثامنة ، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م ، دار الثقافة ، مكة المكرمة .
- ابن إياس : محمد بن أحمد ، بدائع الزهور في وقائع الدهور (الجزء الخامس) ، تحقيق : د. محمد مصطفى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .
- جارشلي : إسماعيل حقي ، أشراف مكة المكرمة وأمراؤها في العهد العثماني ، ترجمة : د. خليل علي مراد . ط : الدار العربية للموسوعات ، بيروت ، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م .
- الجزيري : عبد القادر بن محمد الأنصاري ، درر الفرائد المنظمة ، في أخبار الحجاج وطريق مكة المعظمة.
- ط١ : السلفية ، القاهرة ، ١٣٨٤هـ .
- ط٢ : أعده للنشر : حمد الجاسر ، دار اليمامة ، الرياض ، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- الحسني : عبد الحي ، الهند في العهد الإسلامي ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدرآباد ، الدكن ، الهند ، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م .
- حليم : إبراهيم بك ، تاريخ الدولة العثمانية العلية المعروف بالتحفة الحليمية ، بعناية : نحوي عباس ، مؤسسة المختار ، القاهرة ، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م .
- السنجاري : علي بن تاج الدين ، منائح الكرم ، في أخبار مكة والبيت وولاة

الحرم ، الجزء الخامس ، تحقيق : ملك محمد خياط ، ط : جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، سنة ١٤١٩هـ/١٩٩٨م .

- شافعي : د. لمياء بنت أحمد
  - ابن حجر الهيثمي المكي وجهوده في الكتابة التاريخية ، ط : مكتبة ومطبعة الغد ، القاهرة ، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م .
  - علاقة مكة المكرمة بالدولة الكجراتية الهندية ، بحث نشر في : مجلة كلية الدراسات الإنسانية ، جامعة الأزهر ، مصر ، العدد ١٩ ، سنة ٢٠٠١م .
- الصلابي : د. علي محمد ، الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م .
- عبد الغني : عارف ، تاريخ أمراء مكة المكرمة من ٨هـ إلى ١٣٤٤هـ ، دار البشائر ، دمشق ، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م .
- العصامي : عبد الملك بن حسين ، سمط النجوم العوالي ، في أنباء الأوائل والتوالي ، المكتبة السلفية ، القاهرة ، ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م .
- ابن العماد : عبد الحي بن علي الحنبلي ، شذرات الذهب ، في أخبار من ذهب ، ط : دار الفكر ، بيروت ، ١٣٩٩هـ/١٩٨٩م ، مصور .
- العيدروسي : عبد القادر بن شيخ ، النور السافر في أخبار القرن العاشر ، ط: بغداد ، بعناية : محمد رشيد أفندي الصفار ، سنة ١٩٣٤م .

- فريد بك : محمد ، تاريخ الدولة العثمانية ، تحقيق : إحسان حقي ، دار النفائس ، بيروت ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .
- ابن فهد : جار الله محمد بن العز بن النجم ابن فهد المكي ، نيل المنى ، بذيل بلوغ القرى ، لتكملة إتحاف الورى ، تحقيق : د. محمد الحبيب الهيلة، ط : مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ، لندن ، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م .
- ابن كثير : إسماعيل بن عمر أبو الفدا ، تفسير ابن كثير ، دار المعرفة ، بيروت ، سنة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م .
- كحالة : عمر رضا ، معجم المؤلفين ، ط : الترقي ، دمشق ، ١٩٥٧/١٩٦١م .
- الكناني : محمد بن محمد بن صالح المدني :
  - الشكر والبيان ، لمدح الوزير الأعظم آصف خان ، عظم الله له الشان ، مخطوط ، الإسكوريال رقم ١٧٠٨ (الرسالة الثامنة من ٨٣ أ –٨٧أ) .
  - اللؤلؤ والمرجان ، والفرائد الحسان ، في مدائح مولانا الوزير الأعظم عز الدين آصف خان ، مخطوط ، الإسكوريال رقم ١٧٠٨ (الرسالة السابعة من ٧٢أ –٨٢ب) .
- مرداد : أبو الخير عبد الله بن أحمد ، المختصر من كتاب نشر النور والزهر، في تراجم أفاضل مكة من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر ، اختصار وترتيب : محمد سعيد العامودي وأحمد علي ، ط : عالم المعرفة ، جدة ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .
- موسوعة مكة المكرمة والمدينة المنورة ، نشر : مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ، مصر ، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م .

- النمر : عبد المنعم ، تاريخ الإسلام في الهند ، ط : دار العهد الجديد للطباعة ، القاهرة ، ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٩م .
- النهروالي : قطب الدين محمد بن أحمد
  - الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ، تحقيق : د. علي محمد عمر ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م .
  - البرق اليماني ، في الفتح العثماني ، ط : دار اليمامة ، بإشراف : حمد الجاسر ، الرياض ، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م .
- الهيلة : د. محمد الحبيب ، التاريخ والمؤرخون بمكة من القرن الثالث الهجري إلى القرن الثالث عشر ، مؤسسة الفرقان ، لندن ، ١٩٩٤م .
- ونسنك (وهو معد من المستشرقين) : المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ، مكتبة بريل في مدينة ليدن ، سنة ١٩٣٦م .
- ياقوت الحموي : شهاب الدين الرومي ، معجم البلدان ، ط : دار صادر ، بيروت ، سنة ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م